المنتخب من عصور الأدب

الجزء الاول

تأليف

الدكتور ذو النون المصري الجمل

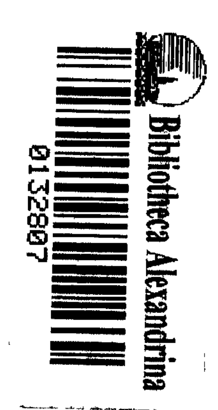
الدكتور محمد منير مرسي

الدكتور سعد إسماعيل شلبي

الدكتور رجاء محمد عيد

الناشر





المنتخب من عصور الأدب

الجزء الأول

تأليف

الدكتور ذو النون المصري الجمل
الدكتور محمد منير مرسي
الدكتور سعد إسماعيل شلبي
الدكتور رجاء محمد عيد

الناشر عالم الكتب
٣٨ شارع عبد الخالق ثروت - بالقاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

يتداول هذا الكتاب مجموعة من النصوص الأدبية المختارة من النثر والشعر العربي عبر العصور المختلفة : من العصر الجاهلي حتى العصر الحديث . وقد استهدف مؤلفو الكتاب حسن اختيار النصوص حتى تكون معبرة عن روح العصر الذى تمثله من ناحية وتساعد القارىء أو الدارس على تذوق جمالها من ناحية أخرى . والكتاب يتكون من جزءين: يتناول الجزء الأول العصر القديم: أى العصر الجاهلى والعصر الإسلامى والعباسى الأول . ويتناول الجزء الثانى منه العصرين : الوسيط والحديث . وقد سار منهج الكتاب على أن يقدم لكل عصر بكلمة توضح أهم ملامحه وخصائصه الأدبية يعقبها نماذج من النثر ثم نماذج من الشعر .

وفى معالجة كل نص من الشعر أو النثر قدمنا له تمهيداً للنص ومؤلفه ثم عرضنا النص نفسه ، ثم التعليق عليه وشرحه وتفسيره . وفى قلة من النصوص اكتفينا بشرح مفردات النص الغامضة وألفاظه الصعبة ، وترك التعليق على النص لإتاحة الفرصة للقارىء أو الدارس أن يتدرب على فهم النص وتحليله والتعليق عليه .

ويهم هذا الكتاب بالدرجة الأولى دارسى الأدب العربى فى المراحل العالية والمتقدمة ويهم أيضاً القائمين على تدريس الأدب العربى وكل من له اهتمام بالأدب العربى : قديمه وحديثه . ونرجو أن يجد فيه كل هؤلاء ما قصدنا إليه من فائدة .

وعلى الله قصد السبيل .

المؤلفون

العصر الجاهلي

العصر الجاهلى

عاش العرب فى جزيرتهم قبل الإسلام محصورين أو كالمحصورين ، لا يكادون يتصلون بغيرهم ، ولا يكاد غيرهم يتصل بهم ، وإن حدث هذا الاتصال ففى أضيق الحدود ، وكان العرب الجاهليون يتكلمون لهجة سامية ، تطورت بتطورهم . ونسبت إليهم وسميت اللغة العربية ، وقد مضى على هذه اللغة التى نتحدث بها الآن نحو خمسة عشر قرناً . وإذن فهى من أطول اللغات عمراً . نشأت بجانبها لغات ثم تطورت إلى لغات أخرى أو ماتت ، بينما لغتنا العربية لاتزال كما نطق بها أهلها ؛ فهى تتطور فى الحقيقة ، ولكنه تطور داخلى لا يمس إطارها الخارجى ، بخلاف المجموعات الأخرى من اللغات الآرية — على سبيل المثال — فتطورها خارجى يجعلها بمرور الزمن تتفتت وتتشعب إلى لهجات جديدة سرعان ما تكون كل منها لغة جديدة تستقل عن اللغة الأم مثل اللغة اللاتينية ، فقد انشعبت إلى لهجات ، فلغات . مثل الفرنسية والأسبانية والإيطالية .

والسبب الحافظ للغة العربية دون انشعابها هو نزول القرآن الكريم بها . والقرآن باق على الدهر . « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » .

واللغة العربية تمتاز باطراد الاشتقاق ، وكثرة المترادفات ، وتنوع المجاز والكناية ، واختلاف طرق الوضع والدلالة . ومما يدل على غزارة مادتها أن الشاعر العربى يستطيع أن ينظم قصيدة على قافية واحدة مهما طالت القصيدة وزادت أبياتها على المائة بل والمائتين ...

وفى مقامات الحريرى — مثلا — نجد فى المقامتين : السينية والشينية التزاما فى كل كلمة من كلمات الأولى أن يكون بها حرف السين وفى الثانية حرف الشين . بل انه فى رسالته الرقطاء جعل كل كلمة من كلماتها مركبة من حرف معجم فآخر مهمل وهكذا شعراً ونثراً .

ومؤرخو التاريخ الأدبى يقسمون الأدب العربى إلى عدة أعصر ، تبدأ بالعصر الجاهلى الذى لا يزيد عمر أقدم المروى من موضوعاته عن مائتى عام قبل ظهور الاسلام : وهذا العصر هو الذى نقدم له الآن .

ومهما يكن من شيء فالأدب العربي المروى عن العصر الجاهلي نوعان :

الشعر ، والنثر الفني. وقد قيل كلام كثير حول أيهما أسبق في الوجود: الشعر، أم النثر . وانتهى الباحثون في جملتهم إلى سبق الشعر . وقد كان العرب لتبديهم، وشظف حياتهم ، وعدم تحضرهم ينظمون شعرهم من غير تكلف في الأسلوب ، ولا تعمق في المعنى ، ولا مبالغة في الخيال ، مع توخي الحقيقة وعدم النزوع إلى الاستعمال المجازي إلا ما كان قريباً من الحقيقة ، والبعد عن المحسنات البديعية إلا ما جاء عفواً .

وكانت أغراض الشعر لا تخرج عن تصوير مجتمعهم البدوي : كالحل والترحال ، والنزاع على مواطن المياه ، والأخذ بالثأر ، والتفاخر بالشجاعة والكرم، ووصف بيئتهم المكانية من وهاد وجبال وجمال وشياه وخيول ....

أما النثر الفني ، فتمثل في الحكمة والأمثال ، والخطابة ، وسجع الكهان ،وتعتبر الأمثال أدل على تصوير الحياة الاجتماعية من الألوان الأدبية الأخرى ، لأنها نابعة من جميع طبقات الشعب ، لا من بيئة خاصة بعينها كالشعر والخطابة مثلا .

أما الخطابة فكانوا يستخدمونها في الحث على الانتقام ، أو التنفير من الحرب ، أو في المنافرات والمفاخرات ونصرة الجار ، أو في السفارة لدى رؤساء القبائل ومن في حكمهم . وكلما كثر أعداء القبيلة زاد خطباؤها ، كقبيلة إياد مثلا ، فكانت مجاورة للدولة الفارسية في شمالي العراق ، ولهذا كانت من أكثر القبائل خطباء ، مثل قس بن ساعدة الإيادي ، وكان للخطيب منزلة مرموقة في قومه تكاد تصل إلى منزلة الشاعر .

يعتبر الشعر أعظم الأنواع الأدبية في العصر الجاهلي ، بل لعله أن يكون النوع الوحيد الذي وصلتنا منه مجموعات غير قليلة في شتى الأغراض ويقول مؤرخو الأدب « إن الشعر ديوان العرب » .

وقد كان في أول أمره مقطوعات صغيرة في أغراض بسيطة، ثم نما وأخذ يتطور في الصورة والمضمون إلى أن صار قصائد تدور حول أغراض شتى ، كالمدح والهجاء والرثاء والفخر والاعتذار والنسيب . ووصف الطبيعة كالإبل والخيل والظباء والسحاب والبرق والليل والوقائع العسكرية ، ونحو ذلك مما يشيع في الطبيعة

الصحراوية فى هذا العصر ، ولم تبلغ النهضة الشعرية ذروتها إلا قبيل الإسلام بنحو مائة وخمسين سنة ، وكانت القبيلة إذا نبغ شاعر هنأتها القبائل الأخرى لأنه المحامى عنها والمتحدث بمفاخرها ، ولعله أن يكون بمثل الصحف الحربية التى فى عصرنا الحاضر .

ومن شعراء الجاهلية المشهورين : امرؤ القيس ، وطرفة بن العبد ، وعمرو بن كلثوم ، وزهير بن أبى سلمى ، والنابغة ، وعنترة ، وغيرهم كثير .

وقد عرف من الشعر الجاهلى بضع قصائد طويلة نالت شهرة فوق العادة . وهى القصائد المعروفة بالمعلقات . وقد اختلف الباحثون فى عددها ، فقيل بأنها سبع ، أو ثمان ، أو عشر . واختلفوا كذلك فى سبب تسميتها ، كلام كثير لا محل له الآن .

والشىء المهم أن الشعر الجاهلى وصل إلينا عن طريق رواة جمعوه خلال القرن الثانى الهجرى ، واشتهر كل راو بمجموعة تنسب إليه ، منهم الرواة الثبوت . ومنهم الرواة المتهمون . فمن الرواة الموثوق بروايتهم :

أبو عمرو بن العلاء : المتوفى سنة ١٥٩ ﻫ . وهو أحد القراء ، ومن رجال النحو واللغة .

المفضل الضبي : المتوفى سنة ١٧٠ ﻫ وله مجموع من الشعر رواه فنسب إليه وهو المعروف « بالمفضليات » .

الأصمعى : المتوفى سنة ٢١٥ ﻫ . وله مجموع رواه فنسب إليه وهو الأصمعيات .

أما الرواة المشكوك فى روايتهم فمنهم :

حماد الراوية : المتوفى سنة ١٦٤ ﻫ . وهو من الموالى . كان كثير الحفظ للشعر لدرجة ملفتة للنظر . قيل كان يحفظ مائة قصيدة طويلة من الشعر الجاهلى على كل حرف من حروف المعجم ، ومن هنا لقب بالراوية .

خلف الأحمر : المتوفى سنة ١٨٠ ﻫ ، وهو من الموالى . قيل بأنه وضع كثيراً من القصائد ونسبها زورا إلى بعض شعراء الجاهلية ، ومن تلك القصائد لامية الشنفرى ، ولامية الشاعر الصعلوك : تأبط شرا .

ونستطيع أن نجمل المجموعات المروية من الشعر الجاهلى فيما يلى:

(١) المعلقات :رواها حماد فى مجموع خاص . واعتبرها سبعا .وهى كذلك سبع عند المفضل الضبي ، بعد أن أبعد اثنتين من رواية حماد، وأضاف اثنتين بدلهما .

وقد شرحت هذه المعلقات: أكثر من مرة، شرحها الزوزنى المتوفى سنة٤٨٦هـ . والتبريزى المتوفى سنة٥٠٢هـ . بعد أن جعلها عشراً .

(٢) المفضليات : نسبة إلى جامعها المفضل الضبى ، وقد شرحها ابن الأنبارى ، ونشرها المستشرق ليال ، وهى ١٢٦ قصيدة أضيف إليها أربع وجدت فى بعض النسخ ، وقد نظمها ٦٧ شاعراً ، منهم ٤٧ جاهليون .

(٣) الأصمعيات: نسبة إلى راويها الأصمعى . وهى قصائد ومقطوعات عددها ٩٢ نظمها ٧١ شاعرا منهم نحو ٤٠ جاهليا .

وقد نشرها المستشرق آلورد Alwardt سنة ١٩٠٢

(٤) جمهرة أشعار العرب: لابى زيد القرشى .

(٥) مختارات ابن الشجرى : لشعراء جاهلين وإسلاميين .

أضف إلى هذا بعض المختارات كحماسة أبى تمام . وحماسة الخالديين المسماة الأشباه والنظائر ، وكذلك الدواوين المفردة لبعض الشعراء الجاهليين . ودواوين القبائل كأشعار الهزليين .

والمهم أن الكثير من دواوين الشعراء ودواوين القبائل تعتبر مفقودة ولكننا نجد نماذج منها فى كتاب الأغانى حين يترجم لهؤلاء الشعراء .

وما دمنا بصدد الشعر الجاهلى فهناك قضية ثارت حول هذا الشعر .

وهى قضية تدور حول عدم نسبة هذا الشعر أو بعضه على الأقل إلى أصحابه الجاهليين ، وهى قضية لها جذور قديمة . فقد ذكر ابن سلام الجمحى المتوفى فى القرن الثالث الهجرى فى كتابه : « طبقات فحول الشعراء » أن بعض الرواة كانوا يرددون شعرا منتحلا وينسبونه إلى شعراء جاهليين لم يقولوه . ويعتبر ابن سلام أول من اثار قضية الانتحال هذه . وإذن فهى فكرة قديمة . ومما يجعلنا نهتم بها أن ابن سلام قريب

عهد برواة الشعر الجاهلي ، فلم يكن يفصل بينه وبينهم إلا بعض عشرات من السنين .
وفي العصر الحديث أخذ بعض المستشرقين يثيرون هذه المسألة مثل آلورد Alwardt عندما نشر مجموعة الأصمعيات ، فشك في الشعر الجاهلي عامة ، ولم يجد فيه ما يوثقه إلا قلة من القصائد عينها .

ثم سار على هذا النحو غيره من المستشرقين المتوفرين على دراسة الشعر العربي ، أمثال : مور ، وبروكلمان .

أما من شك في نسبة الشعر الجاهلي كله إلى أصحابه فهو المستشرق اليهودي الإنجليزي دافيد مارجوليوث David Margoliouth في مقالة له بمجلة الجمعية الملكية الآسيوية عدد يوليه سنة ١٩٢٥ تحت العنوان الآتي : « منابع الشعر الجاهلي »
The Origins of Arabic Poetry

وقد وردت هذه المقالة مترجمة في كتاب «مصادر الشعر الجاهلي» للدكتور ناصر الدين الأسد .

ولم يكد دارسو الأدب العربي عامة والجاهلي خاصة يستمعون إلى هذا الاتجاه الجديد نحو التشكيك الكامل في هذا الشعر حتى هبوا يردون على مارجوليوث .

ومنهم على سبيل المثال المستشرق لايل في مقدمته لمجموع « المفضليات » بل إنه خاشنه حين رد عليه ، وممن ردوا على مارجوليوث وناقشه المستشرق الفرنسي بلاشير في كتابه : « تاريخ الأدب العربي » الجزء الأول .

أما أستاذنا المرحوم الدكتور طه حسين فقد أفاض في كتابه « في الشعر الجاهلي » في الحديث حول هذه القضية ، مؤيدا رأي القائلين بأن الشعر الجاهلي منحول . فلما صودر كتاب أستاذنا طه حسين وضع كتاباً آخر بعنوان «في الأدب الجاهلي» وعرض لقضية الانتحال في إسهاب وبسط .

وإذن فمارجوليوث وطه حسين وغيرهما لم يأتيا بجديد حين رفضا الشعر الجاهلي ورفضا نسبته إلى أصحابه . فليس ذلك من ابتكارهما كما شاع في بعض الأوساط ، وإنما سبقا إليه كما ترى .

وسيجد القارىء في السطور التالية بعض النماذج المختارة لنصوص من النثر والشعر في هذا العصر .

طريق السيادة والشرف

لذى الأصبع العدوانى

تمهيد : ذو الأصبع العدوانى هو حرثان بن الحارث ناثر وشاعر من العصر الجاهلى ينتمى إلى قبيلة عدوان المضرية وسمى « ذو الأصبع » لوجود أصبع زائدة برجله. وكان من حكماء العرب. ولما حضرته الوفاة أوصى ابنه وكان يسمى «أسيدا» ببعض الوصايا التى تنفعه فى حياته قال :

النص

« يا بُنَىَّ ! إن أباكَ قد فَنِيَ وَهو حَيٌّ وَعاشَ حتى سَئِمَ العيش وَإنى مُوصيك بما إن حَفِظْتَهُ بلغتَ فى قومِكَ ما بلغتُهُ فاحفظْ عنى أَلِنْ جانبَكَ لقومك يحبوكَ وتواضع لهم يرفعوكَ ، وَابسُط لهم وجهك يطيعوكَ ولا تستأثِر عَليهم بشيء يُسوِّدُوكَ وأَكرم صغارهم كما تكرم كبارهم يكرمك كبارهم ويكبر على مودتك صغارهم واسمح بمالك واحم حريمك وأعزز جاركَ وَأعِن مَن استعان بك وأكرِمْ ضَيْفَكَ وأسرِع النهضة فى الصريخ[١] فإن لك أَجَلاً لا يَعدُوكَ[٢] وصُنْ وَجهك عَن مَسألة أحد شيئًا فبذلك يتم سؤددُكَ[٣] ».

---

(١) أي أسرع لنهضة من يستغيث بك .
(٢) لا يتخطاك .
(٣) أى شرفك وكرامتك .

التعليق

تمثل هذه الوصايا خلاصة التجارب والخبرة الطويلة التى عرفها الأب من تجارب حياته وقد تضمنت عدة مبادىء رئيسية هامة أوصى بها الأب ابنه نوجزها فيما يلى :

— معاملة قومه برفق ليحبوه .

— تواضعه معهم حتى يرفعوا من قدره .

— مقابلتهم بوجه منشرح باسم .

— إشراكهم فى ماله ونعمه .

— إكرامه الكبير منهم والصغير على السواء .

— التحلى بالصفات الكريمة التى تؤهله للسيادة من كرم وإيمان ورعاية ونجدة للمستغيث وعدم إراقة الدماء والتعفف عن سؤال الناس .

فى الفخر

للمرقش الأكبر

تمهيد: المرقش الأكبر شاعر جاهلى من بكر توفى سنة ٥٢٣ م وقد عرف بالفروسيـــة : ومن المعروف أن للبيئة الطبيعية فى العصر الجاهلى تأثيرها على حياة العربى ، جعلته يعتز ببعض المآثر والقيم والمثل التى تباهى بها العرب واحتلت من حياتهم مكانة كريمة . والنص التالى يكشف عن بعض هذه المآثر التى يفتخر بها الشاعر .

النص

١ — إنْ تُبْتَدَرْ غَايَةٌ يوما لمَكْرُمَةٍ ... تَلْقَ السَّوابِقَ منا والمصَلِّينَا

٢ — وَلَيْسَ يَهلِكُ مِنَّا سَيِّدٌ أبَدًا ... إلا ابْتَلَيْنَا غُلامًا سَيِّدًا فِينَا

٣ — إنَّا لَنُرْخِصُ يَوْمَ الروعِ أَنفُسَنَا ... ولو نُسَامُ بِهَا فِى الأمْنِ أُغْلِينَا

٤ — شُعْثٌ مَفَارِقُنَا تَغْلِى مَرَاجِلُنَا ... نَأْسُو بِأَمْوالِنَا آثارَ أَيْدِينَا

٥ — المُطْعِمُونَ إِذَا هَبَّتْ شَآمِيَةٌ ... وَخَيْرُ نَادٍ رَآه النَّاسُ نَادِينَا

٦ — إنِّى لَمِنْ مَعْشَرٍ أَفْنَى أَوَائِلَهُمْ ... قِيلُ الكُماةِ أَلا أَيْنَ المُحَامُونَا

---

(١) السوابق جمع سابق وهو أول الخيل فى السباق ـ المصلين : جمع مصل وهو الجواد الذى يلى السابق .

(٢) ابتلينا : اختبرنا .

(٣) نسام بها : يساومنا أحد عليها . أغلينا : صارت غالية .

(٤) شعث : جمع أشعث وهو المغبر الشعر وهو دليل على كثرة الحروب مراجلنا جمع مرجل وهو القدر . نأسو : نداوى .

(٥) شامية : رياح شمالية تهب من ناحية الشام .

(٦) الكماة : جمع كمى وهو الفارس الذى يلبس عدة الحرب .

٧ — لَوْ كَانَ فِي الأَلْفِ مِنَّا وَاحِدٌ فَدَعَوْا   مَنْ فَارِسٌ ؟ خَالَهُمْ إِيَّاهُ يَعْنُونَا

٨ — إِذَا الكُمَاةُ تَنَحَّوْا أَنْ يُصِيبَهُمُ   حَدُّ الظُّبَاتِ وَصَلْنَاهَا بِأَيْدِينَا

٩ — وَلا تَرَاهُمْ وإِنْ جَلَّتْ مُصِيبَتُهُمْ   مَعَ البُكَاةِ عَلَى مَنْ مَاتَ يَبْكُونَا

١٠ — وَنَرْكَبُ الكُرْهَ أَحْيَانًا فَيُفْرِجُهُ   عَنَّا الحِفَاظُ وَأَسْيَافٌ تُوَاتِينَا

---

(٨) الظبات : جمع ظبة وهو حد السيف .

(١٠) الحفاظ : المحافظة .

في المـدح

للنابغة الذبياني

تمهيد : النابغة الذبياني هو أبو أمامة زياد بن معاوية من أشراف قبيلة ذبيان المضرية وقد لقب بالنابغة لنبوغه في الشعر فجأة وهو كبير وصار أحد فحول شعراء الجاهلية وقد تكسب بالشعر في الجاهلية ولكنه آثر مدح ملوك المناذرة بالحيرة والغساسنة بالشام . وكان من أوائل من مدحهم النعمان بن المنذر أحد ملوك المناذرة فقربه إليه ولكنه انقلب عليه بعد ذلك عندما وشي به وهم بقتله ففر النابغة إلى ملوك الغساسنة بالشام فمدحهم ولم يطب مقامه بالشام فعاد يستعطف النعمان بقصائد رائعة كانت سبباً في عفوه عنه وقد عمر النابغة طويلا ومات قبل الإسلام .

ومن أشهر قصائده هذه القصيدة التي نوردها فيما يلي، مدح فيها عمر بن الحارث الأصغر من ملوك بني غسان بالشام .

النص

١ — كِليني لِهَمٍّ يا أُميمةُ ناصبِ   وَليلٍ أُقاسيه بطيءِ الكواكبِ

٢ — تَطاولَ حتى قلتُ ليس بِمُنْقَضٍ   وليس الذي يرعى النجومَ بآيبِ

٣ — وصَدْرٍ أراحَ الليل عازبَ هَمِّه   تضاعفَ فيه الحزنُ من كل جانبَ

٤ — عَلَيَّ لِعَمْرٍ نعمةٌ بعدَ نعمةٍ   لوالده ليستْ بذات عقاربِ

---

(١) كليني : أتركيني • أميمة : اسم امرأة وهو تصغير أم • ناصب من النصب وهو التعب • بطيء الكواكب : دلالة على طول الليل لكثرة الهموم •

(٢) الذي يرعى النجوم هو الصبح والمقصود هنا تطاول الليل بلا آخر •

(٣) أراح من الرواح وهو الرجوع • وعازب : غائب أي أن صدري أثقله ما أعاده الليل من غائب همه وحزنه •

(٤) في هذا البيت يمدح عمراً بأنه له عليه نعمة بعد نعمة سابقة لوالده وهي ليست بذات عقارب أي بدون ما يكدرها من من وأذى •

٥ — حلفت يميناً غيرَ ذى مَثْنَوِيةٍ وَلا علمَ إلا حسنُ ظَنٍّ بصاحبِ
٦ — لئن كانَ للقبرين قبرٍ بجِلّقٍ وقبرٍ بصيداء الذى عند حاربِ
٧ — وللحارث الجفنىِّ سيِّد قومِه لَيلتَمِسَنْ بالجيش دار المحاربِ
٨ — وثقتُ له بالنصر إذ قيل قدغزتْ كتائبُ من غسان غيرُ أشائبِ
٩ — بنو عمِّه دنيا وعمرو بن عامر أولئك قومٌ بأسُهم غيرُ كاذبِ
١٠ — إذاماغزَوْا بالجيش حَلَّقَ فوقهم عصائبُ طيرٍ تهتدى بعصائبِ
١١ — يُصَاحِبنهم حتى يُغِرْنَ مُغارَهُمْ من الضاريات بالدماء الدَّواربِ
١٢ — تراهُن خلفَ القوم خُزْراً عيونُها جلوسَ الشيوخ فى ثياب المرانبِ

(٥) أى حلفت يمينا لم أستثن منها ولا علم لى بصحة هذه اليمين الا حسن ظنى بصاحبى الذى أمدحه ·

(٦ ، ٧) أى لئن كان الممدوح عمرو ينتسب لصاحبى هذين القبرين وهو الواقع · جلق : اسم دمشق — صيدا من الشام الساحلية وقريبة منها · حارب : اسم رجل أو بلد · وصاحبا القبرين هما الأب والجد الأول والحارث الجفنى : هو الجد الثالث لأن الممدوح هو عمرو بن يزيد بن الحارث الجفنى · والمعنى لئن كان هذا الممدوح ابن هؤلاء الملوك العظام (وهو يعلم أنه ابنهم) ليبلغن مبلغهم وليطلبن بجيشه أعداءه فيغزوهم فى عقر دارهم كما كان أباؤه وأجداده يفعلون ·

(٨) أشائب جمع أشابه وهم الأخلاط أى أن هذه الكتائب كلها من صنب غسان ·

(٩) أى أن هذه القبائل هم بنو عمه الأدنون الأقربون ·

(١٠ ، ١١) أى اذا غزوا حلقت عليهم جماعات النسور والعقبان لتأكل ممن يقتلونهم · والدوارب : المتدربات ·

(١٢) خزر : أى ضيقة العيون محددة النظر · أى أنها عند اشتداد القتال تقع على أعالى الأرض والهضاب كأنها فى ريشها ووقوفها تترقب القتلى جالسة جلوس الشيوخ بأكسية المرانب وهى جمع مرنبانى وهو الثوب المبطن بفراء الأرانب ·

١٣— جوانحَ قد أيقنَّ أن قبيلهُ إذا ما التقى الجمعانِ أولُ غالبِ

١٤— لهنَّ عليهم عادةٌ قد عرفْنَها إذا عُرِّضَ الخطِّيُّ فوق الكواثبِ

١٥— على عارفاتٍ للطعانِ عوابسٍ بهنَّ كلومٌ بين دامٍ وجالبِ

١٦— إذا استُنْزِلوا عنهنَّ للطعنِ أرقلوا إلى الموتِ إرقالَ الجمالِ المصاعبِ

١٧— فهم يتساقَوْنَ المنيةَ بينهم بأيديهم بيضٌ رقاقُ المضاربِ

١٨— يطير فُضَاضًا بينها كل قَوْنَسٍ ويتبعُها منهم فَرَاشُ الحواجبِ

١٩— ولا عيبَ فيهم غيرَ أنَّ سيوفهم بهن فلولٌ من قِراعِ الكتائبِ

(١٣ ، ١٤) جوانح : مائلات للوقوع • القنا الخطى : الرمح المنسوب الى الخط وهى بلد بالبحرين • والكواثب : جمع كاثبة وهى من جسم الفرس ما تحت الكاهل الى الظهر والمعنى أن الطير اعتادت أنه اذا عرضت الرماح على الكواثب كان ذلك لرزق يساق اليها •

(١٥) عارفات : خيول صابرات لطعان الأعداء • الجالب : الجرح الذى يبس أعلاه •

(١٦) أرقلوا : أسرعوا • الجمل المصعب أى الجمل الفحل • والمعنى أنه اذا نزل القوم عن الخيول لضيق المكان ووقع الالتحام أسرعوا الى الموت على أرجلهم كأنهم الجمال المصاعب •

(١٧) يتساقون : يسقى بعضهم بعضا •

(١٨) الفضاض : من انفض وتفرق — القونس : أعلى البيضة التى توضع على الرأس من الفولاذ • فراش الحواجب : أى فراش الجمجمة وهى العظام الرقاق التى تكون أسفل الجمجمة فوق الحنك والمعنى أن قوانس الفرسان تطير فضاضا بين هذه السيوف ويتبعها فى الطيران فراش جماجم الفرسان •

(١٩) فلول : جمع فل وهو الثلمة فى حد السيف • والمعنى أن سيوفهم أصبحت غير حادة من كثرة ضرب الأعداء •

٢٠— تُوورِثْنَ من أزمانِ يوم حليمة ... إلى اليوم قد جُرِّبْنَ كل التجاربِ

٢١— تَقُدُّ السَّلوقيَّ المضاعف نسجهُ ... وتوقدُ بالصفَّاح نارُ الحُباحِبِ

٢٢— بضربٍ يُزِيلُ الهامَ عن سكناتِهِ ... وطعنٍ كايزاغ المخاض الضواربِ

٢٣— لهم شيمة لم يعطها الله غيرهم ... من الجود والأحلام غير عوازبِ

٢٤— محلتهم ذات الإله ودينهم ... قويم فما يرجون غيرَ العواقبِ

٢٥— رقاقَ النعال طيبُ حُجُزَاتهمُ ... يحيون بالريحان يوم السباسبِ

٢٦— تحييهم بيضُ الولائد بينهم ... وأكسيةُ الإضريجِ فوق المشاجبِ

---

(٢٠) أى أن هذه السيوف ورثت عن الآباء الذين حضروا يوم حليمة عندما انتصرت فيه الغساسنة على المناذرة وحليمة هي ابنة الحارث بن أبى شمر جد الممدوح الثالث وكانت ضمخت بالطيب عسكر أبيها عند رجوعهم منتصرين .

(٢١) السلوقى : الدرع السلوقى الذى ينسب الى بلدة سلوقية بالشام — الصفاح : الحجارة العراض . نار الحباحب : شعاع يضىء بالليل والمعنى أن هذه السيوف تقطع الدرع المضاعفة النسج وإذا ضرب بها الحجارة قدحت شرارا يتطاير كأنه نار الحباحب .

(٢٢) الايزاغ : دفع الناقة بولها . المخاض : النوق الحوامل . الضوارب التى تضرب بأرجلها والمعنى انه اذا ضرب بها أزالت الهام عن الأعناق واذا طعن بها خرج الدم فى اثرها كاندفاع بول النوق والحوامل .

(٢٣) الأحلام : العقول . العوازب : البعيدة أو الغائبة أى أنهم أجواد حاضرو العقول .

(٢٤) أى مسكنهم بيت المقدس والأرض المقدسة أى أنهم متدينون .

(٢٥) رقاق النعال كناية عن قلة مشيهم لأنهم ملوك بل يركبون الخيل . الحجزات : مجمع شد الأزار على الوسط من الجسم والمقصود عفتهم . السباسب : يوم الشعانين وهو يوم عيد عند النصارى وكان الممدوح نصرانيا .

(٢٦) الولائد : الاماء . الاضريج : الخز الأحمر اللون . أى أنهم ملوك أهل نعمة تخدمهم الولائد البيض وثيابهم ثمينة .

٢٧— يصونون أجساداً قديماً نعيمها   بخالصة الأردان خضر المناكبِ

٢٨— ولا يحسبون الخير لاشرَّ بعدَه   ولا يحسبون الشر ضربةَ لازبِ

٢٩—حبوتُ بها غسان إذ كنت لاحقاً   بقومي وإذ أعْيَتْ عليَّ مذاهبي

---

(٢٧) الأردان جمع ردن وهو مقدم كم القميص أى أنهم يصونون أجسادهم العريقة فى التعيم بثياب بيض الأردان خضر المناكب وكان هذا الزى هو لبس الملوك .

(٢٨) أى أنهم عرفوا تصرف الزمان وتقلبه فلا يبطرون عند الخير ولا يقنطون عند الشر .

(٢٩) أى حبوت بقصائدى غسان عندما كنت لاحقا بقومى غير خائف من أحد وكان قد هرب من النعمان .

من معلقة عمرو بن كلثوم

تمهيد: الشاعر « عمرو بن كلثوم التغلبي » سيد تغلب ، وفارسها ، وأحد فتاك العرب ، وشعرائهم ، اشتهر بالقصيدة التي معنا، وأجاد فيها الفخر ، وأمه : «ليلى بنت المهلهل»أخت كليب القتيل الذى من أجلهاشتعلت حرب البسوس . قال هذه المعلقة فى ملاحاة وقعت بينه وبين الحارث بن حلزة اليشكرى شاعر بكر... مات قبل الإسلام بنحو نصف قرن ، وكانت له شهرة بالخطابة لا تقل عن شهرته بالشعر .

مناسبة القصيدة : وقعت حروب كثيرة بين قبيلتى : «بكر» و «تغلب» أطلقوا عليها حرب «البسوس» وهى من أيام العرب المشهورة . وقد بذلت محاولات للصلح بين المتحاربين منها واحدة على يد « عمرو بن هند » وكانت كل قبيلة تقدم شعراءها للتحدث باسمها والتغنى بأمجادها وقد أخذ عمرو من قبيلة تغلب رهائن ، نزلوا على ماء لقوم من بكر ، فنحاهم البكريون ، وحالوا بينهم وبين الماء حتى ماتوا عطاشا ، فطالب التغلبيون بديات موتاهم ، واختصموا أمام عمرو بن هند..فقال عمرو بن كلثوم هذه القصيدة .

النص

١ — أبا هند فلا تعجَل علينا   وأنظِرْنا نخبِّرْكَ اليقينا

٢ — بأنا نورد الرّايات بيضاً   ونُصدرهن حُمراً قد رَوينا

٣ — وأيامٍ لنا غُرٍ طوال   عصينا الملك فيها أن ندينا

---

(١) أبو هند : عمرو بن هند الملك الحيرة ، ابن المنذر بن ماء السماء : أنظِرنا : أمهلنا .

(٣) ندين : نخضع ونذل .

٤ — وسيد معشر قد توجوه بتاج الملكِ يحمى
٥ — تركنا الخيلَ عاكفةً عليه مقلّدةً أعنّتها
٦ — متى ننقل إلى قومٍ رحانا يكونوا فى اللّقاء لم
٧ — يكونُ ثِفالُها شرقىَّ نجدٍ ولَهوتُها قُضاعة
٨ — نزلتم مَنزلَ الأضيافِ منا فأعْجلنا القِرى أن
٩ — قريناكم فعجلنا قِراكم قبيلَ الصُّبح مرداةً
١٠— نَعُمُّ أناسَنا ونعِفُّ عنهم ونحملِ عنهم ما
١١— نطاعنُ ما تراخَى النّاسُ عنا ونضربُ بالسُّيوف إذا
١٢— نشُقُّ بها رءوسَ القوم شقًّا ونُخليها الرقابَ
١٣— كأن جماجِمَ الأبطالِ فيها وسوقٌ بالأماعِز
١٤— وأنّ الضغْن بعد الضغْن يبدو عليكَ ويُخرج الداء
١٥— ورِثنا المجْدَ قد علمت معدٌّ نُطاعن دونَه حتى

---

(٤) المحجرون : اللاجئون الى من يحميهم ٠
(٥) صفونا : قائمة جمع مفرده صافنة ٠
(٧) الثفال : جلدة توضع تحت الرحى يسقط عليها الطحين ، القبضة من الحب تلقى فى الرحى ٠
(٩) القرى : الضيافة ٠ المرداة : الصخرة التى تكسر بها الحجار
(١٠) نعم أناسنا : يقصد : يعمهم بالخير ٠
(١١) نطاعن : بالرماح ٠
(١٣) الأماعز : جمع أمعز وهى الأرض الصلبة الكثيرة الحصى . الو الأحمال جمع وسق ٠
(١٥) معد : ابن عدنان واليه ينسب الشاعر ، حتى يبين ، حتى عنا ٠

١٦— ونحن إذا عِمادُ الحى خرت   على الأحفاضِ تمنعُ من يَلينا
١٧— نجُذ رءوسَهم فى غير برٍّ   فما يدرون ماذا يَتَّقونا
١٨— كأن سيوفَنا فينا وفيهم   مخاريقٌ بأيْدى لاعبينا
١٩— كأن ثيابَنا منَّا ومِنْهم   خُضِبن بأُرْجوان أو طُلينا
٢٠— إذا ماعَىَّ بالإسْنافِ حىٌّ   من الهولِ المشبَّه أن يكونا
٢١— نَصبْنا مثلَ رهوةَ ذاتَ حدٍّ   محافظة وكنا السَّابقينا
٢٢— بشُبانٍ يرون القتل مجدًا   وشيبٍ فى الحروب مُجَربينا
٢٣— حُدياًّ الناسِ كلِّهم جميعًا   مقارعــــةً بنيهم عن بنينا

التعليق

يتخذ الشاعر فى هذا الجزء من المعلقة ــ الفخر بالشجاعة والقدرة على القتال وانزال الهزائم بالأعداء،فكرة أساسية، ويمر فى سبيل تأكيدها بعدة معان أو محاور:

المحور الأول : يخاطب فيه الحكم بين القبيلتين ، ويسمع قبيلة « بكر » مهاجما وقبيلته «تغلب» معتزا .. ليقرر فى هذا المحور أنه وقبيلته يحالفم النصر دائما ، وأنهم أنزلوا الهزائم بأمنع الرجال وأشجعهم .

---

(١٦) الأحفاض : أمتعة البيت جمع حفض .
(١٧) ماذا يتقون : أى بماذا يتقوننا أبالسيوف أم بالرماح ؟
(١٨) مخاريق : مناديل تلف ويضرب بها .
(١٩) الأرجوان : صبغ أحمر ، الثياب : يريد بها : العذبات التى تربط بأطراف الرماح .
(٢٠،٢١) عى بالأمر : تحير ، الاسناف : التقدم بالخيل الى المعركة ، رهوة : اسم جبل ، حد : شوكة .
(٢٣) حديا : اسم من التحدى . وهى مصغر حدوى .

ولا يختم هذا المحور إلا بعد أن يبلغ بالعنف ذروته ، طولا وعرضا أو عمقاً واتساعاً .. أما العمق والعنف فيمثله :

متى ننقل إلى قوم رحانا　　يكونوا فى اللقاء لها طحينا

وينضم إلى هذا العنف ترامى الميدان واتساعه ويمثله قوله :

يكون ثفالها شرقى نجـــد　　ولهوتها قضـــاعة أجمعينا

المحور الثانى : وفيه التهكم والسخرية بقبيلة بكر على مسمع منها، فهم أضياف وتغلب خير من يكرم الأضياف ، ولـكن القرى لن يكون طعاماً أو شراباً ، بل سيكون « مرداة طحونا » وهكذا يرى الشاعر أعداءه بصخرة طاحنة ، ثم يهاجم، طعناً بالرمح ، وضرباً بالسيف ، يشق الرءوس ويحز الرقاب ، فتتطاير الجماجم ، وتتناثر الأحمال .

ويختم هذا المحور ببيان روافد هذه المعارك ، أو بعبارة أدق « مايؤجج أوارها » ويجعله فى شيئين : أولهما يتعلق بالأعداء وهو الحقد والضغن ، والآخر يتعلق بقومه ألا وهو المجد الأصيل .. يعبر عن الأول بقوله :

وأن الضغن بعـــد الضغن يبدو　　عليك ويخرج الداء الدفينا

ويفصح عن الثانى بقوله :

ورثنا المجد قد علمت معد　　نطاعن دونه حتى يبينـــا

المحور الثالث : وفى شىء من التسلسل ينتقل الشاعر المفاخر .. إلى المحور الثالث فيجعله عاما ، يقرر فيه مبادىء ، وصفات لازمة ويفصح عن مزايا قبيلته بين أحياء العرب :

فإذا خرت العماد ، وعجزت الأحياء عن التحرك إلى المعارك ، فإنهم يمنعون الصديق، ويجزون رأس العدو، ويشعلون مثل جبل رهوة، ويتوافد شبابهم متحدين الناس جميعا بقوتهم ، ويساندهم الشيوخ مؤازرين الفتيان بحكمتهم وتجاربهم . وهكذا يدير الشاعر قصيدته هذه حول تلك العناصر :

كلمة للحكم ، . . . وثانية لخصمه ، . . . وثالثة للعرب جميعاً .
والكلمات الثلاث من جنس واحد فيه : العنف والحرب والشجاعة .

* * *

أحاسيس تفصح عن سلطان القبيلة ، والتغنى بأمجادها الحربية ، وتزهو بشيبها وشبانها ، فى ألفاظ وعبارات تتسم بالقوة والجزالة : « تصدر الرايات حمرا ، ننقل إلى قوم رحانا ، قرا كم مرداة طحون ، نشق الرءوس ونخلى الرقاب . . . » إلى غير ذلك . مما يصور هذا الشعور الحماسى المشتعل .

ولك أن تلحظ فى كثرة استعمال الشاعر لضمير المتكلم جمعاً :

مثل : «علينا ، أنظرنا ، وأيام لنا ، عصينا الملك ، تركنا الخيل» . . . وهكذا .

ومثل : « ونحن .. نجز الرءوس .. نصبنا مثل رهوة » ... وهكذا .

لك أن تلحظ اختفاء ذاتية الشاعر فى ذاتية قبيلته أو اتحادهما ليصيرا عنصراً واحداً هو القبيلة ، وفى ذلك دلالة على سيطرة القبيلة من جهة ومنزلة الشاعر منها ، وقيمته فى التحدث بلسانها .

ونحن معك إذا ادعيت أن المعانى التى عرضها الشاعر تتميز بالسهولة والبساطة دون تعقيد أو عمق ، وهكذا كان شعراء العصر الجاهلى ، يصدرون عن فطرتهم البدوية الواضحة .

وكذلك الصور : تجدها تنقل الطبيعة الجاهلية : بجبلها ، ورحاها وصخرها وخيامها ، وحبالها ... وأسلحة حربها . . صور طبيعية تقرب من الحقيقه ، وتبعد عن الاستعارات والمجازات الحضارية .

إن عمرو بن كلثوم ، لم يبعد بصفة عامة — عن الواقع كثيراً ، ولم يشأ أن يبالغ فى التعبير عن نفسه أو يتجاوز الواقع ليحلق بنا فى عالم الوهم والخيال إنه يصور الواقع فى أمانة وصدق ، فأتى شعره مرآة صادقة تنعكس عليها الأحداث التى يراها بعينه ، وصورها بفنه دون كذب أو مبالغة أو تهويل ، ومن أدلة ذلك أنه يتحدث عن عدوه — أحياناً — كما يتحدث عن فتيان قبيلته .

كأن سيوفنا منـــا ومنهم مخـــاريق بأيدى لاعبينـــا
كأن ثيـــابنا منـــا ومنهم خضبن بأرجوان أو طلينـــا

ومن هنا يظهر لنـا صحة ما ذهب إليه بعض النقاد والقدماء عندما سموا هـذه المعلقة « المنصفة » .

وليس معنى هذا أن القصيدة تخـــلو من ثورة على العدو ، أو اعتزاز وزهو ببطولة القبيلة ومكانتها، فالأمر على النقيض، فالمعلقة — مع روح الإنصاف فيها — شواظ يضيء بمعانى الشجاعة ، التى لا ترهب الموت ، ولا تباليه ، والتى تتخذ شعارها ، العيش فى كرامة أو الموت تحت ظلال الرماح والسيوف موتاً عزيزاً شريفاً .

كل ذلك فى بساطة ووضوح ، دون مبالغـــة أو غلو يخرج بالشعر عن حد الاتزان .

وعلى هذا النحو نجد سخرية ابن كلثوم ترتبط بالواقع المحسوس فتزداد وضوحاً فإذا اجتمع لها — مع ذلك ، الحركة اكتسبت الحيوية ، والسرعة . . . ويتراءى ذلك فى قوله « نزلتم منزل الأضيـاف . . . » البيت والبيتين اللذين بعـده ، وجملة القول : أن هذه المعلقة تصور الشاعر والقبيلة ، والطبيعة والأخـلاق السائدة فى مجتمعنا العربى العريق . (*)

(*) دكتور سعد شلبى

من أشعار لقيط بن يعمر

تمهيد : عرفت قبيلة إياد العربية بالشجاعة والعزة والإباء .فلم يحدث كما تذهب بعض الروايات — أن دان أهلها للملك أو أصابهم فى الجاهلية سباء .

وكان موطنهم أولا فى تهامة على ساحل البحر الأحمر . ثم رحلوا عنها إلى الشرق حيث نزلوا السواد من أرض العراق ، وتغلبوا على الجزء الجنوبى من نهر دجلة والعراق بجاورين فى ذلك أملاك الفارسيين . فلم يحسنوا هذا الجوار ، فوقعت بينهم وبين الأكاسرة حروب كانت سجالا .

بعد ذلك ارتحل الإياديون إلى الجزء الشمالى من دجلة والفرات وكان يسمى أرض الجزيرة ، ولم يتخل الإياديون عن شراستهم وعنفهم ، مما أحفظ عليهم كسرى ملك الفرس فعزم على تجهيز جيش للقضاء عليهم .

علم بأمر هذه الحملة العسكرية أحد العرب من بنى إياد وكان يعمل كاتباً فى أحد دواوين الدولة الفارسية وهو لقيط بن يعمر : فكتب هذه القصيدة ينذر فيها قومه ، ويستنهض هممهم ، ويحذرهم غزو كسرى .

وتقول الروايات أنه شاعر جاهلى مقل لا يروى له من الشعر غير تلك القصيدة العينية وبعض المقطوعات المتفرقة :

وقد صدر قصيدته تلك بكتاب جليل عنوانه :

سلام فى الصحيفة من لقيط   إلى مَنْ بالجزيرة من إياد

بأن الليث كسرى قد أتاكم   فلا يشغلكم سوق النّقاد(١)

وكان مطلع تلك القصيدة :

يا دار عَمْرة مَنْ مُحْتلها الجَرَعا(٢)   هاجت له الهمَّ والأحزانَ والرُّجُعا(٣)

---

(١) النقاد : الأغنام الصغيرة ، أو صنف من الأغنام قباح الوجوه قصار الأرجل . واحدتها نقده .

(٢) الجرع والأجرع والجرعاء : الأرض الرملية لا ينبت فيها النبات .

(٣) الرجع بضمتين : جمع رجيع وهو الكلام المردود الى صاحبه .

مالى أراكم نياماً فى بُلَهْنِيَةٍ (٤) وقد ترون شهابَ الحربِ قد سطعا
فاشفُوا غليلى برأىٍ منكم حَصِدٍ (٥) يُصْبِح فؤادى له رَيَّان قد نَقَعا (٦)
وَلا تكونوا كمن قد باتَ مُكْتَنِعاً (٧)
إذا يُقال له أفرِجْ غُمة كَنَعا (٨)
يَسْعَى وَيحسِبُ أَنَّ المالَ مُخْلدُهُ إذا استفادَ طَرِيفًا زادهُ طَمَعاَ
فاقنُوا (٩) جِيادَكُمْ واحْمُوا ذِمارَكم
واستَشْعِروا الصَّبْرَ لا تَسْتَشْعِروا الجَزَعاَ
وَلا يَدَعْ بعضكُم بَعضًا لنائبةٍ
كما تركتم بأعلى بيشَةَ (١٠) النَّخَعاَ (١١)
صُونوا جيادَكُمْ وَاجْلوا سُيُوفَكُمُ وَجدِّدوا للقِسِىِّ النَّبل وَالشرعا (١٢)
أَذْكوا (١٣) العُيونَ وَراءَ السَّرحِ (١٤) وَاحْتَرِسُوا
حتى تُرى الخيلُ من تَعْدائها رُجُعاَ (١٥)

---

(٤) عيش هنىء .
(٥) محكم .
(٦) شفاء الغليل ونقع الفؤاد دلالة على اطمئنان النفس .
(٧) راضيا حريصا على ما هو فيه من نعمة .
(٨) جبن وهرب .
(٩) الزموا .
(١٠) بيشة : قرية بهذا الاسم فى اليمن .
(١١) النخع : اسم قبيلة يمنية .
(١٢) جمع شرعة وهو الوتر الرقيق .
(١٣) بثوا الجواسيس .
(١٤) الشجر العظيم يستظل به .
(١٥) جمع رجيع وهو البعير المهزول أو المتعب من السفر .

وَاشْرُوا(١٦) تِلادَكُمُ فِي حِرْزِ أَنْفُسِكُمْ   وَحِرْزِ أَهْلِيكُم لا تَهْلِكُوا هَلَعاً

فإن غلبتم عَلَى ضَنٍّ بِدارِكُم   فقد لَقِيتم بِأَمْرِ الحازِمِ الفَزَعا(١٧)

لا تُلهِكُم إِبِلٌ لَيْسَت لَكُمْ إِبِلٌ   إِنَّ العَدُوَّ بِعَظْمٍ مِنكُمُ قَرَعا(١٨)

لا تُثْمِروا المالَ لِلأَعْداءِ إِنَّهُمُ   إِنْ يَظْهَروا يَحْتَوُوكُم وَالتِّلادَ مَعاً

هَيْهاتَ لا مالَ مِنْ زَرْعٍ وَلا إِبِلٍ   يُرْجَى لِغابِرِكُم إِنْ أَنْفُكُمْ جُدِعا(١٩)

وَاللهِ ما انْفَكَّتِ الأَمْوالُ مُذْ أَبَدٍ   لِأَهْلِها إِنْ أُصِيبُوا مَرَّةً تَبَعاً

يا قَوْمِ إِنَّ لَكُمْ مِنْ إِرْثِ أَوَّلِكُمْ   مَجْداً قَدْ أَشْفَقْتُ أَنْ يَفْنَى وَيَنْقَطِعا

ماذا يَرُدُّ عليكم عِزُّ أَوَّلِكُم   إِنْ ضاعَ آخِرُهُ أَوْ ذَلَّ واتَّضَعا

يا قَوْمِ لا تَأْمَنُوا إِنْ كُنْتُمُ غُيُراً(٢٠)   عَلَى نِسائِكُمُ كِسْرَى وَما جَمَعا

يا قَوْمِ بَيْضَتُكُمْ(٢١) لا تُفْجَعُنَّ بِها   إِنِّي أَخافُ عَلَيْها الأَزْلَمَ(٢٢) الجَذَعا(٢٣)

هوَ الجَلاءُ الَّذِي يَجْتَثُّ أَصْلَكُمُ   فَمَنْ رَأَى مِثْلَ ذا رَأْياً وَمَنْ سَمِعا

---

(١٦) شراه يشريه شرى : باعه ، وشراه أيضا : أخذه بثمن .

(١٧) أذا دافعتم دفاع الأبطال عن دياركم وقدر لكم مع هذا أن تغلبوا فلا عار عليكم فيما أصابكم من فزع ، لأن هذا ما يقتضيه الحزم .

(١٨) قرع العظم : الاصابة في الصميم .

(١٩) جدع الأنف قطعه ، وهو كناية عن الاذلال .

(٢٠) جمع غيور وهو الذي يغار على أهله .

(٢١) البيضة في الأصل ساحة القوم والمراد هنا الوطن .

(٢٢) الأزلم : المقطوع طرف الأنف وكانوا يفعلون ذلك بالأبل الكريمة .

(٢٣) الجذع : الفتى الصغير السن . والأزلم الجذع يراد به هنا كسرى .

قوموا قياماً عَلَى أَمْشَاطِ أَرْجُلِكُمْ
ثُمَّ افزَعُوا[٢٤] قد ينالُ الأَمْنَ مَنْ فَزِعَا
وَقَلِّدوا أَمْرَكم لِلَّهِ دَرُّكُم[٢٥] رَحِبَ الذِّراعِ بأَمْرِ الْحَرْبِ مُضْطَلِعاَ
لا مُتْرَفاً إِنْ رَخَاءُ الْعَيْشِ سَاعَدهُ وَلا إِذا عَضَّ مكروهٌ به خَشَعاَ
لا يَطعَم النَّوْمَ إلا رَيْثَ يَبْعَثُهُ هَمٌّ يكادُ شَبَاهُ يَقْصِمُ الضِّلَعاَ
مُسَهَّدَ النَّوْمِ تَعْنِيهِ أُمُـورُكم يروم مِنهاَ إلى الأعداء مُطَّلَعاَ
ما انْفَكَّ يَحْلِبُ[٢٦] هذا الدَّهْرَ أَشْطُرَه
يَكونُ مُتَّبِعًا طَوْراً وَمُتَّبَعَا
حَتَّى اسْتَمَرَّتْ عَلَى شَزْرٍ مَرِيرَتُهُ[٢٧]
مُسْتَحْكِمَ الرَّأْيِ لا قَحِماً[٢٨] وَلاَضَرِعاَ
وَلَيْسَ يَشْغَلُهُ مالٌ يُثَمِّرُهُ عَنكُمُ وَلا وَلَدٌ يَبْغِى له الرِّفَعاَ
لَقَدْ بَذَلْتُ لَكُمُ نُصْحِى بِلادَخَلٍ فاسْتَيْقِظُوا إِنَّ خَيْرَ الْعِلْمِ مانَفَعاَ
هٰذا كِتَابى إِلَيْكم وَالنَّذِيرُ لَكم لِمَنْ رَأَى رَأْيَهُ مِنكُمْ وَمَنْ سَمِعاَ

---

(٢٤) فزع القوم وفزعهم وأفزعهم : أغاثهم .
(٢٥) الدر : اللبن ، واضافة الدر لله للتعظيم لأنه منشىء العجائب . وهذا التركيب يقال لمن تتعجب من عمله فتمدحه .
(٢٦) حلبت الدهر أشطره : خبرت ضروبه ومربى خير وشر . مأخوذ من حلب جميع أخلاف الناقة ما حفل منها باللبن وما لم يحفل .
(٢٧) من امرار الحبل أى شدة فتله ، والمراد استحكام رأيه مع قوته .
(٢٨) القحم : الشيخ الكبير .

التعليق

نستطيع أن نلمح فى هذا النص غرضين أساسيين :

الأول : أن الشاعر يحذر قومه الإياديين من الغزو الفارسى ، ويوضح لهم خطر الركون والاستمتاع بما هم فيه من نعيم مقيم ، وما ينتابهم من غفلة عن عدوهم ، ويرجو أن يتمسكوا بالحزم ، وأن يستعدوا للحرب ، ويهيئوا وسائلها ، وأن يبثوا العيون والأرصاد ، ويحترسوا من المفاجأة . وركز على خطورة التلهى بالأموال واستثمارها ، واستحث غيرة قومه على نسائهم ومواطنهم والمحافظة على ما ورثوا من عز طارف وتليد .

ولا ينسى الشاعر أن يبين ما لخطر التهاون فى الدفاع عن الوطن من ذل وعار وجلاء عن الأوطان .

الثانى : أن الشاعر يبين ما يجب على المتحاربين من التدقيق فى اختيار قائدهم وزعيمهم . على أن يكون واسع القدرة . خبيراً بفنون الحرب وأساليبها ، عليماً بأحوال الدهر ، قد مر به خيره وشره ، وألا يستبد برأيه ولا يغتر بنفسه ، مع قوة النفس فلا تبطره النعمة ولا يستذله الفقر ، وأن تكون أمور قومه محل عنايته لا يشغله عن ذلك تثمير مال ولا شدة عناية بولد .

وينهى الشاعر قوله ناصحاً قومه ومحذراً من عواقب الإهمال .

ونلحظ فى أسلوب القصيدة سمات الشعر الجاهلى وطابع الحياة البدوية ، ولعله يختلف بعض الشىء عن الشعر الجاهلى الذى نعرفه ! فمعانى هذه القصيدة مرتبة ومتماسكة ، وفيها مسحة من السهولة التى ربما جاءت لتحضر الشاعر وثقافته واتصاله بالحياة الفارسية .

أما ما أورده من الصفات التى يجب أن يتحلى بها الرئيس والقائد — أى رئيس وأى قائد — وبخاصة زمن الحرب فقد أوفى بها على المراد . وهى صفات لازلنا فى حاجة إليها حتى زمننا هذا .

فى الفخر

لطرفة بن العبد

تمهيد : طرفة بن العبد البكرى من فحول شعراء الجاهلية اشتهر بقول الشاعر فى أغراض متعددة كان من بينها الهجاء وكان ذلك سبباً فى موته ؛ ذلك أنه هجا أحد الملوك وكان يدعى عمرو بن هند فدبر قتله بواسطة وال له فى البحرين قام بقتله وهو شاب لم تزد سنه على ست وعشرين سنة . وقد قال طرفة أشعاراً فى الفخر منها هذه الأبيات الذى يفخر فيها بقومه .

النص

سَائِلوا عَنَّا الَّذِى يَعْرِفُنَا ... بِقُوانَا يَوْمَ تَحْلاقِ اللِّمَم (١)

يَومَ تُبدِى الْبِيضُ عَن أَسْوُقِهَا (٢) ... وَتَلُفُّ الْخَيلُ أَعْرَاجَ النَّعَم

أَجْدَرُ النَّاسِ بِرَأْسٍ صِلْدَمٍ (٣) ... حَازِمُ الأَمْرِ شُجَاعٌ فِى الْوَغَم

كَامِلٌ يَحْمِلُ آلاءَ (٤) الْفَتَى ... نَبِهٌ سَيِّدُ سَادَاتٍ خِضَم

خَيْرُ حَىٍّ مِنْ مَعَدٍّ عَلِمُوا ... لِـكَفِىءٍ (٥) وَلِجَارٍ وَابْنِ عَم

(١) يوم تحلاق اللمم : أى يوم انتصار بكر على تغلب فى حرب البسوس وفيها كان رجال بكر حالقين رءوسهم تمييزاً لهم .

(٢) البيض : المقصود بهن النساء البيض . أسوقها : سوقهن أى يوم تكشف النساء البيض عن سوقهن من هول اليوم وشدته . الأعراج : قطعان الابل . النعم : الجمال أو الابل والمعنى أن خيلنا تحوز قطعانا من ابل تغلب .

(٣) الصلدم : القوى والمعنى أننا أجدر الناس بزعيم قوى شجاع .

(٤) الآلاء : النعم والعطايا . والخضم : السيد المعطاء والمعنى ان هذا الزعيم كامل يحمل نعم الفتى الكامل وهو معين معطاء .

(٥) الكفىء : المتغير اللون من البؤس أى نحن خير حى من معد عرفه الناس معينا للكفىء والجار وابن العم .

يَجْبُرُ المحروبُ[٦] فِينا مَالَهُ ... بِبِناءٍ وَسَوامٍ وَخَدَمْ
نُقُلٌ[٧] لِلشَّحْمِ فى مَشْتَاتِنا ... نُحُر لِلنِّيبِ طرادو القَرَمْ
نَزَعٌ[٨] الجاهلَ فى مَجْلِسنا ... فَتَرى المجلسَ فِينا كالحَرَمْ
وَتفرَّعنا مِن ابنىْ وائِلٍ ... هامَةَ المَجْدِ وَخُرْطوم[٩] الكَرَمِ
مِنْ بَنِى بَكرٍ إذا ما نُسِبُوا ... وَبَنِى تَغْلِبَ ضَرَّابِى البُهَمْ[١٠]
حِينَ يَحْمِى النَّاسُ نَحْمِى سِرْبَنا[١١] ... وَاضِحِى الأوْجُهِ مَعْروفِى الكَرَمْ
بِحُسامَاتٍ[١٢] تَرَاها رُسَّبا ... فى الضَّرِيباتِ مُتِرَّاتِ العُصُمْ
وَفُحولٍ[١٣] هَيْكلاتٍ وُقُحٍ ... أعْوَجِياتٍ عَلَى الشَّأْوِ أُزُمْ
وَقَنًا[١٤] جُرْدٍ وَخَيلٍ ضُمَّرٍ ... شُزَّبٍ مِن عَلاكِ اللُّجُمْ

(٦) المحروب : الذى سلب ماله . السوام : الابل السائمة والمقصود أننا نجبر من سلب ماله ونعطيه سكنا وابلا سائمة وخدما .

(٧) نقل : معطاءون . النيب النوق . القرم : شدة اشتهاء اللحم لطول الحرمان منه . أى أننا نعطى من يقصدنا الشحم فى الشتاء وننحر النوق النيب ونطعم من يشتهى اللحم .

(٨) نزع : نزجر والمعنى أننا نزجر الجاهل حتى نجعل لمجلسنا حرمة واحتراما .

(٩) الخرطوم : الأنف ويكتنى به هنا عن العزة والأنفة .

(١٠) البهم : جمع بهمة وهو الشجاع لا يعلم من أين يضرب .

(١١) السرب : النساء أو النفس .

(١٢) الحسامات : السيوف . رسبا : جمع راسب وهو السيف . المترات : القاطعات . العصم : كل ما يعصم ويربط .

(١٣) الفحول : الذكور من الحيوان ، الهيكلات : جمع هيكل وهو العظيم الجسم ، الوقح : جمع وقاح وهو الفرس الصلب الحافر . أعوجيات : جمع أعوجى وهو الفرس المنسوب الى أعوج اسم فرس كريم . أزم جمع أزوم وهو الفرس النشيط . الشأو : السبق والمعنى أننا نحمى سربنا بخيول قوية صلبة شديدة .

(١٤) قنا : أى الرماح . ضمر : أى ضامرة . تعلاك اللجم : أى مضغها والعض عليها بالفم .

آدَت[١٥] الصنعةُ فى أَمْتُنِهَا فَهِىَ مِنْ تحت مُشيحاتُ الحُزُم
تتقى الأرْضَ بِأرح[١٦] وُقُح وُرُق يَقْعَرن أنباكَ الأكم
وَتَفرَّى[١٧] اللَّحمُ مِنْ تَعْدَائِها والتَّغالى فَهِىَ قُبٌ كالعَجَم
خُلُجٌ[١٨] الشَّدُّ مُلِحاتٌ إذَا شَالَتْ الأيْدى عَلَيْهَا بالجذَم
قد ما تَنْضُو[١٩] إلى الدَّاعِى إذا خَلَّلَ الدَّاعِى بِدَعْوَى ثم عَم
بِشَبَاب وكُهُولِ نُهَّدِ[٢٠] كَلُيُوثِ بَيْنَ عِرِّيس الأجم

(١٥) آدت : قويت · الصنعة : حسن القيام على تربية الفرس · الأمتن : الظهور · مشيحات الحزم : أى أن أحزمتها متقدمة أو مرتفعة الى الأمام · أى أن هذه الخيل قويت ظهورها وأعظمها من حسن القيام عليها حتى أنك ترى أحزمتها مرتفعة ·

(١٦) الأرح : الحافر العريض · وقح : جمع وقاح وهو الحافر الصلب · ورق : جمع أورق وهو ذو اللون الأسود فى بياض كالرماد · يقعرن : يقتلعن الأنباك : جمع نبك وهى الأرض المرتفعة ·

(١٧) تفرى : ينشق · التعداء : العدو · القب : جمع أقب وهى الخيل دقيقة الخصر ضامرة البطن · العجم : النوى أى أن هذه الخيل ينشق لحمها من شدة عدوها وصعودها فهى ضامرة يابسة العضل كأنها النوى فى الصلابة ·

(١٨) الخلج : جمع خلوج وهى سريعة الجرى · الشد : العدو · الملحات : المنصبات فى الجرى · الجذم : جمع جذمة وهو السوط ·

(١٩) تنضو : تسرع قدما بدون انحراف · خلل : خصص أى أنها تسرع الى نجدة المستغيث اذا خصص ثم عاد الى التعميم لاشتداد كربه ·

(٢٠) النهد : جمع ناهد وهو الشجاع · العريس : مأوى الأسد · الأجم : الشجر الكثيف ·

زفرة والد

لعبد الله بن ربيعة الثقفى (أمية بن أبى الصلت)

تمهيد : أما الشاعر فجاهلى أدرك الاسلام (مخضرم) .. من قبيلة ثقيف بالطائف اشتهر فى العصر الجاهلى . تأثر بالقيم والمبادىء الانسانية التى عرفها العرب من الأديان السماوية ، وبما أثر عن حكمائهم .

النص

١ — غَذَوْتُكَ مَوْلودًا وَعُلْتُكَ يافِعًا ... تُعَلُّ بما أُدْنى إلَيْك وتَنْهَلُ

٢ — إذا ليلةٌ نابتْك بالشكْو لم أبِت ... لشَكْواكَ إلا ساهِرًا أتَمَلْمَلُ

٣ — كأنى أنا المطْروقُ دونَك بالذى ... طُرِقت به دُونى ، وعَيْنى تَهْمِلُ

٤ — تخاف الرَّدَى نفسى عليك، وإنها ... لتَعلَمُ أنَّ الموتَ حَتْمٌ مُؤَجَّلُ

٥ — فلما بَلغتَ السِّنَّ والغَايَةَ التى ... إليها مَدى ما كُنْتُ فيها أُؤَمِّل

٦ — جعلتَ جَزائى مِنْك جَبْهًا وَغِلْظَةً ... كأنَّكَ أنتَ المُنعِمُ المتفضِّلُ

٧ — فليتَك إذ لم تَرْعَ حقَّ أبوَّتى ... فعلتَ كما الجارُ المُجاوِرُ يَفْعَلُ

التعليق

والشاعر هنا يصف حالة نفسية تعترى الأب عندما يجابه بما لا يتوقع من ولد عزيز تعهده بالعطف ، وأغدق عليه بالحنان إنه غاضب فى رفق ، محتج فى أمل .

---

(١) غذوتك : قدمت لك الغذاء • علتك : ربيتك وكفلتك • تعل : تشرب ثانيا • تنهل : تشرب أولا •

(٢) نابتك : أصابتك • أتململ : أتقلب متألما •

(٣) المطروق : المصاب • تهمل : تدمع •

(٤) الردى : الهلاك •

(٦) جبها : مقابلتى بما أكره •

وعهدنا بالغضب أن يجلب العنف، وبالاحتجاج أن يسلم إلى السخط .. هذا عند غير الآباء . . أما الآباء فغضب ورفق واحتجاج وأمل فى آن واحد .

* * *

يسرد الأب فى بساطة مظاهر عطفه على ولده فى مجال عتاب حزين تتوالى فيه ألوان من الرعاية : غذوتك ، وعلتك ، وأشكيتك ، عواطف نبيلة يشاكلها: عطفتَ، وبررتَ وحفظت الجميل .. لم يحدث هذا .. ولكن الأب يفاجأ بنكران يعتصر قلبه.. «جعلت جزائى منك جبها وغلظة» . يقابله بأمنية دامية أسوانة فى مطلب وحيد متواضع:

فليتك إذ لم ترع حق أبوتى   فعلت كما الجار المجاور يفعل

إنه يريد منه حق الجوار بعد عشرة طال مداها . .

بعد ضياع الأمل فى بنوة وفية لأبوة حانية .

* * *

وقد عرض الشاعر هذه الأنة العاتبة الحزينة مؤثراً بالحقيقة الشاعرة والكلمة المعبرة . .

حقائق تتوالى من إحسان الأب على ولده يسردها على أرض الواقع ولا يحلق بها إلى سماوات الخيال .. وإنه لغنى عن ذلك ما دامت هذه الحقيقة من النوع النفسى الذى يعايش الأحاسيس ، ويهز الوجدان .

وكلمات فى نسق رائع لا يستطيعه غير أديب مطبوع : ألفاظ وعبارات سهلة ، وجمل تتوالى فى سماحة تكشف عن الفكرة وتهز المشاعر فى آن واحد . .

استمع إلى قوله : غذوتك بجوار مولوداً ، وعلتك بجوار يافعاً لتحس بموسيقا التناسب بجوار موسيقا النغم ، وهذا الحنان المكثف الذى لا يؤدى بغير قوله ..« تعل بما أدنى إليك وتنهل» الكلمات بصورها ، وترتيبها ، تمثل إشفاق الأب وحرصه على أن يقدم لابنه ما يريد ، وأكثر مما يريد . وهذه الكلمة التى تجسم القلق والألم والإشفاق « أتململ » وتركزه فى قلب الأب وجثمانه ، وحركاته وسكناته ليمتص ما ينوب ولده فى كل وقت ، فى كل ليلة : أى ليلة .

* * *

سلامة فى التعبير، تساير الحب الفطرى، وتفصح عن أرق عاطفة يحس بها البشر (*).

(*) دكتور سعد شلبى

العصر الإسلامي

العصر الاسلامى

عصر صدر الإسلام وبنى أمية

[أ] صدر الإسلام :

لسنا مع هؤلاء الذين يزعمون أن الشعر فى صدر الإسلام قد خفت صوته ، وضعف لفظه ، وتواضعت أقدار منشديه .

ربما إستدل هؤلاء الزاعمون بأدلة نقلية يستمدونها بماقررالسابقون من مؤرخى الأدب أو المهتمين به ، أو بأدلة عقلية يعتمدون فيها على تعليلات يسوغون بها هذا الخفوت والضعف .

وربما كان رأى هؤلاء الزاعمين منقولا من عبارات سطرها صاحب « طبقات فحول الشعراء » ، ابن سلام ، وتناولها الرواة والمؤرخون من بعده إذ يقول : «جاء الإسلام وتشاغلت عن الشعر العرب ، وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم ، ولهت (العرب) عن الشعر وروايته ، فلما كثر الإسلام وجاءت الفتوح واطمأنت العرب والأمصار راجعوا رواية الشعر[1] » .

ولعل مؤرخينا المحدثين معذورون عندما يرددون هذا القول ، ولم يكلفوا أنفسهم مناقشته مادام ابن خلدون نفسه ، وهو العالم الناقد والمؤرخ الواعى قد تورط فى هذا الخطأ عندما قال فى مقدمته :

« انصرف العرب عن الشعر أول الإسلام بما شغلهم من أمر الدين والنبوة والوحى ، وبما أدهشهم من أسلوب القرآن ونظمه ، فأخرسوا عن ذلك وسكتوا عن الخوض فى النظم والنثر زمانا ، ثم استقر ذلك وأونس الرشد من الملة ، ولم ينزل

---

(١) طبقات فحول الشعراء ص ٢٢ .

الوحى فى تحريم الشعر وحظره . وسمعه النبي (ﷺ) وأثاب عليه فرجعوا حينئذ عن ديدنهم منه(١).

وقد يجد أصحاب الرأى أن القرآن الكريم يؤكد مذهبهم حيث يقول عز وجل فى سورة الشعراء : «والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم فى كل وادٍ يهيمون . وأنهم يقولون ما لا يفعلون»(٢) .

ونجد لهؤلاء تعليلات عقلية لهذا الضعف وذلك التهافت ؛ يقولون : ينمو الشعر ويزدهر حيث العصبية القبلية ، والثارات ، والإحن التى تتحرك منها المشاعر ، وتثور الانفعالات شعراً نابعاً من أعماق الشعراء .

وهكذا كان شأن شعراء الجاهلية فى وصف معارك العرب فى أيامها التى شملت معارك البسوس ، وداحس والغبراء وغيرهما . وفى هذه الأيام استمعنا من شاعر كعمرو بن كلثوم ، شاعر تغلب . والحارث بن حلزة ، شاعر بكر فى حرب البسوس ، وكعنترة بن شداد شاعر عبس . فإن لم تفجر هذه الحروب ينابيع الشعر فجرها عطاء السادة من ملوك الحيرة والغساسنة . كما صنعوا مع النابغة الذبيانى .

وما دام هذا العطاء لا يجد سبيله إليهم إلا بمقدار فلا نتوقع غير الانصراف عن الشعر . وهكذا كان الخلفاء الراشدون يحملون حملة عنيفة على الشعراء . وكان عمر ابن الخطاب أسبقهم إلى ذلك وأحرصهم عليه . فلم يقف هؤلاء الخلفاء عن العطاء فقط بل تجاوزوا ذلك إلى التهديد بالعقاب .

أرسل عمر بن الخطاب إلى المغيرة بن شعبة . عامله على الكوفة أن استنشد من من قبلك من الشعراء ما قالوا فى الإسلام ، فسأل الأغلب العجلى فبادره قائلا :

لقد سألت هيناً موجوداً أرجزاً تريد أم قصيداً

وسأل لبيداً فكتب سورة البقرة . فأخذ عمر خمسمائة من عطاء الأغلب وزادها فى عطاء لبيد .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٤٢٧ .

(٢) سورة الشعراء آية رقم ٢٢٤ ، ٢٢٥ .

وعلى هذا النسق كان على بن أبي طالب ، فقد مر (كرم الله وجهه) على مدائن كسرى فسمع جرير بن سهم التميمى يتمثل قول الأسود بن يعفر :

جرت الرياح إلى مكان ديارهم فكأنما كانوا على ميعاد(١)

فقال على . لم لم تقل كما قال الله جل وعز « كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك وأورثناها قوما آخرين »(٢) .

هذا رأيهم وتلك أغلب حججهم ، ولكننا نذهب إلى النقيض من ذلك فنرى أن الشعر لم يكن ضعيفاً ولا متهافتاً ولا خافتاً فى عصر صدر الإسلام ، فهذه الأدلة التى ساقوها مردود عليها :

فما يراه ابن سلام ويردده ابن خلدون ويتناقله الرواة إنما أرادوا به لوناً معيناً من الشعر وهو الشعر الذى يهاجم الإسلام أو يتعارض مع مبادئه السمحية ، وأن عدداً غير قليل من المسلمين قد رجعوا عن رواية لون معين من الشعر هو الذى يأباه الإسلام ، ولا يسمح لمن يدين بخلقه ، ويتحلى بعقيدته أن ينحدر فيروى شعراً فى الخمر . أو يردد قصيداً يثير به حزازات بين القبائل ، أو يذكر الأشخاص بما كان بينهم من عداوات . فكيف يروون شيئاً من ذلك وبين أيديهم القرآن الكريم . وأمام عيونهم الرسول عليه السلام ينثر على مسامعهم بين حين وآخر آيات بينات وعظات وعبراً تجعلهم يسكتون فلا يخوضون إلا فيما يتلاءم مع مبادئه وما يتعبد طريقه المستقيم .

وهكذا القرآن لايذم أى شعر ، ولكنه يقصد نوعاً معيناً واستثنى من الشعراء الذين آمنوا فقال :

« والشعراء يتبعهم الغاوون . . . . ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وانتصروا من بعد ما ظلموا » .

وأتى الإسلام واستبدل العرب معارك بمعارك ، غير أن المعارك الجديدة لم تكن بين قبيلة ، وقبيلة ولكنها كانت بين الإسلام والكفر ، وليست هذه المعارك الأخيرة بأقل حاجة للشعر من المعارك القديمة .

---

(١) الأغانى جـ ١١ ص ١٣٥ .
(٢) سورة الدخان آية ٢٥ — ٢٨ .

وكان عليه السلام يشجع الشعر ويثيب عليه ، وله شعراؤه الذين اتخذ منهم سيوفاً يسلها على أعدائه . ومن هـــؤلاء « حسان بن ثابت . وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحه » .

وكان الرسول يقول : « إن من البيان لسحراً ، وإن من الشعر لحكمة » ، واستمع إلى شعر الذين هجوه من أعدائه فقال للأنصار :

« ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم » فقال حسان بن ثابت : أنا لها ، وأخذ بطرف لسانه وقال : والله ما يسرنى به مقول بين بصرى وصنعاء ،[1] وانبرى لهم حسان بن ثابت ، وعاونه من شعراء الأنصار جماعة تعد على رأسهم : كعب بن مالك . وعبد الله بن رواحه . وكان الصحابة كما كان الرسول يقدرون الشعر ، فهذا هو كعب بن زهير ينشد قصيدته التى استعطف فيها فيها الرسول ومطلعها :

« بانت سعاد فقلبي اليوم متبول »

ينشدها فى المسجد ، والرسول والصحابة يستمعون إليه ثم يخلع الرسول عليه بردته ، وقد أثر عن الخلفاء الراشدين أنهم يحفظون الشعر ويستشهدون به فى خطبهم ويتمثلون به فى كلامهم ، وأثر عنهم جميعهم حب الشعر والشعراء والإثابة على الشعر .

وإذا كانت العصبية القبلية قد اختفت فى مجتمع المسلمين فإنها لم تختف بين عامة العرب وخاصة غير المسلمين ممن يسكنون البوادى ويقضون حياتهم فى الحل والترحال .

وغير معقول أن يقضى الإسلام على الشعر والشعراء فى يوم وليلة ولا فى شهور وسنين ، ومن المستبعد أن يضعفه ، مادامت هذه الدعوة الجديدة تدعو المناصرين لها والمناهضين إلى حمل السيوف للدفاع عنها أومهاجمتها ، وبجوارهما مدافعون عن الدين القديم ومهاجمون أيضاً وهؤلاء وهؤلاء يسلون ألسنتهم بجوار سيوفهم ولم تكد تستقر الدعوة الجديدة فى أواخر حياة الرسول ويكتب لها الغلبة حتى شاعت الفتنة بعد وفاته بارتداد أقوام فى عهد أبى بكر . وللمرتدين أشعار وللمسلمين أشعار .

وعندما انطلق العرب فى عهد أبى بكر وعمر يفتحون البلاد فى فارس والروم أخذ شعراؤهم ينشدون أناشيد الجهاد .

(١) الأغانى جـ ٤ ص ١٣٧ .

وكانت فتنة عثمان . وانقسام المسلمين شيعاً وأحزابا فى عهد على ، واشتعال نيران الحروب يتزودها أعلام الرجال والنساء أمثال طلحة والزبير وعائشة ومعاوية ابن أبى سفيان فعلت أصوات الشعراء وتصايحوا فى كل مكان فكيف يقال بعد ذلك كله إن الشعر قد ضعف عن المستوى العربى والإسلامى . ومكة لم تفتح إلا فى العام الثامن من الهجرة ولمكة شعراؤها ، وللبوادى شعراؤها ، وهناك من قبل ومن بعد المخضرمون الذين عاشوا فى الجاهلية والإسلام يحافظون على المستوى العام الذى وصل إليه الشعر ، ومن هؤلاء المخضرمين حسان بن ثابت ، كعب بن زهـــير ، والحطيئة أخوه ، ولبيد بن ربيعة ، والنابغة الجعدى وغيرهم كثير .

فإذا ادعى بأن الألفاظ الرصينة والصياغة البدوية لم تعد بعد الإسلام على النحو الذى كان عليه الشعر قبله ، فإننا مع تسليمنا بذلك لانذهب إلى أن الشعر قد ضعف فهذه نظرة لغوية يرددها علماء اللغة ويناصرها علماء النحو أما الأدب ورواته وناقدوه فإنهم يرون فى ذلك تطورا ونماء فليس الشعر ألفاظاً وعبارات ولكنه عاطفة ومشاعر ، وقيم ومبادىء ، ومعان وأفكار ، وأخيلة وصور وكل هذه الجوانب قد تمت فى ظلال الإسلام واكتسب الشعر بهاء ونهوضاً .

أثر الإسلام والقرآن فى اللغة والأدب :

شاع فى الإسلام اتجاهات وقيم جديدة جاء بها الدين الجديد وغرسها فى نفوس أتباعه ، وحملها الفاتحون معهم إلى كل بلد فتحوه ، وهذه القيم الجديدة لم تؤثر تأثيراً سطحياً يقف عند أسمائها . وبعض مسمياتها ، ولكنها تجاوزت ذلك إلى التأثير فى السلوك ، والأفكار ، والعادات والتقاليد .

ومن هذه القيم ما هو روحى يعتمد على الإيمان بالله واليوم الآخر ، والتصديق بما جاء به الأنبيـــاء والمرسلون ، والاسترشاد بالخلق الطيب الذى يوضح القرآن معالمه فى : الرحمة والمودة ، والتعاطف ، والتعاون والنظام والصفح الجميل ، والصبر ، والصراحة وصدق الوعد ، والأمانة .

ومنها ماهو يدعو إلى استعمال العقل ونبذ التقليد ويحث على الاجتهاد والتجريب ، ويرفع شأن العلم ويحارب الجهل .

ومنها ما هو اجتماعى يحافظ على تماسك الأمة وتقاليد الأسرة . والبر بالآباء

والأمهات وإعطاء المرأة حقوقها ومنها هو إنسانى يرتفع بكرامة الإنسان ويحافظ على حقوقه مسلماً أو غير مسلم .

وهذه التعاليم وتلك التقاليد هى التى دعا لهـا الإسلام ، وبها فتح العرب العراق والشام ، ومصر والأندلس ، وبها كان للمسلين مكانتهم فى خرسان والهند ، وبها كان يتغنى الشعراء المسلمون فى عهد الرسول وفى عهد خلفائه الراشدين .

وقد امتاز الدين الجـديد بأنه يدعو إلى هذه القيم بـكتاب هو القرآن الـكريم لا يأتيه البـاطل من بين يديه ولا من خلفـه ولم يتح لأمة من الأمم كتاب مثله من حيث البلاغة والتأثير فى النفوس والأفـكار شهد له الوليد بن المغيرة ، وكان من ألد خصومه : « والله لقد سمعت من محمد كلاماً ، ما هو من كلام الإنس ، ولا من كلام الجن ، وإن له لحـلاوة ، وإن عليـه لطلاوة ، وإن أعـلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق » .

وكان من أهم آثاره اللفظية أنه جمع العرب على لهجة قريش وقرب ما بين اللهجات العربية من فروق ، واستـكمل للغة قريش ولهجتها السـيادة على اللهجات العربية جميعها . وانتقل بهذه اللغة إلى العالم الإسلامى كله فبقيت ما بقى القرآن غضة لاتبلى مع الزمان .

وبذلك أحل فى لغـة العرب معانى لم تـكن تعرفها قبله مثل : الجنـة والنار والـكفر والإيمان ، والصوم والصلاة والزكاة .

وقامت حـوله عدة علوم فى سبيل المحافظة عليه : منها النحو واللغـة والقراءات وبقية العلوم الإسلامية .

ومن يكن النثر بأقل تأثرا بالإسلام وتعاليمه ، وبالقرآن والحديث — من الشعر بل كان أكثر تأثراً لأن الخطابة كانت هى الوســيلة الطبيعية للدعوة إلى العقيدة الجديدة وكان الحوار بين الدعاة والمعارضين لها يتخذ من النثر وسيلة الأداء .

فـكانت الخطابة وعظاً وإرشاداً ودعوة إلى ما فيه كمال الناس وسعادتهم فى الدنيا والآخرة ، وأخذت ميادينها تتسع وتتشعب بكثرة الفتوح واشتعال الفتن بين المسلمين فـكان منها ما يتصل بالحرب والنضال والدعوة إلى الاستماتة فى الحروب ، وكان

منها ما يتصل بمعارضة الخصوم ، ومحاجة الطوائف ، وكانت كلها تعتمد على آيات القرآن الكريم ، وأحاديث الرسول تستمد منها القوة والجلال .

وتطورت الكتابة أيضاً بتعدد مجالاتها وتنوع موضوعاتها التى لم تكن للعرب — قبل الإسلام — بها عهد ، فالرسول قد عنى بها ، وحمل أسرى بدر على تعليم صبيان المسلمين ، وبعث برسائله إلى الملوك والرؤساء ، وسار على نهجه خلفاؤه الراشدون خاصة عمر الفاروق ، فكتبوا إلى الولاة وقادة الفتوح بما يعن لهم من تعاليم واتجاهات

فتوافرت للكتاب فى صدر الاسلام أسباب التطور والنهوض .

[ب] فى عصر بنى أمية :

تجمع كلمة المؤرخين على أن الأدب فى العصر الأموى قد اكتملت له عناصر الفتوة والشباب ، قتل عثمان (رضى الله عنه) فأدى مقتله إلى انقسام الأمة الإسلامية ومحاربة بعضها بعضاً ، والشعر يزدهر حيث الحروب والمنازعات ، ولم يكد الأمر يستقر لمعاوية بن أبى سفيان وللأسرة الأموية من بعده حتى اندفعت الجيوش العربية من جديد لتفتح بلاداً فى العراق وإيران وخراسان وفى الشام ومصر وبلاد المغرب ، ثم عبروا المحيط إلى بلاد الأندلس .

ولم يكن العرب بالذين يتعالون على البلاد المفتوحة بل كانوا يعيشون فى تلك البلاد سواسية مع أهلها الأصليين ، وامتزجوا بهم زواجاً ومعاملات . وهنا أخذت لغات أهل هذه البلاد تترك مكانها من ألسنة أصحابها لتحل محلها العربية لغة الدين والقرآن .

ومن هنا نشأت مراكز للشعر فى هذا العصر .

— فهناك المدينة ومكة : وقد تحضرتا تحضراً واسعاً ، وعاشت كل منهما عيشة ترف ودعة وشاع فيها شعر الحب والغزل وشغف أهلها بالغناء شغفاً شديداً .

وقد ترجم أبو الفرج الأصفهانى فى كتابه الأغانى لعدد غير قليل من شعراء هاتين المدينتين ، منهم : النعمان بن بشير ، والأحوص بن محمد ، وعبيد الله بن مسعود من المدينة ، وفى مكة نجد الشاعر الخفيف الروح . الدارمى ، وعبيد الله بن قيس الرقيات ، وعمر بن أبى ربيعة بل نجد الشاعرة الثريا بنت على بن الحارث .

— وهناك نجد وبوادى الحجاز ، وفيها ظلت المنافسات القبلية على المراعى ، ولم تأخذ حظاً من الترف . ولذلك بقيت القبائل فى هذه الجهات يتربص بعضها ببعض ، ودفع شظف المعيشة فى هذه البيئة البدوية كثيراً من شعرائها للوفود على الخلفاء فى دمشق والولاة فى مكة والمدينة والكوفة والبصرة يطلبون نوالهم .

وأبرز مافى هذه البيئة ، شعر الغزل الذى شاع فيه النبل والسمو والطهارة والنقاء وهنا تظهر شهرة بنى عذرة وبنى عامر .

— وهناك يجتمع البصرة والكوفة . وهما المدينتان اللتان انشأهما سيدنا عمر لتكونا معسكرين يعدان الجيوش الفاتحة بما تحتاج من أمداد وتكونا فى الوقت نفسه ركيزتين المسلمين ، حتى لايذوبوا فى البلاد التى يفتحونها ، وهذان المعسكران كأنا مقر الجيوش المحاربة فى عصر صدر الإسلام والعصر الاموى جميعاً .

وبمضى الزمن صارت الكوفة مركزاً للشيعة يتعصبون لآل على وينتظرون أن يخرج من صلبه من يخلصهم من ظلم بنى أمية .

أما البصرة فلم تشغل بالخصومات الشيعية ، بل كانوا يميلون إلى بنى أمية . ولكن هذا الميول لم يكن عنيفاً لأنهم شغلوا بما بينهم من عصبيات قبلية .

ومن هنا شاع فى الكوفة شعر الشيعة ، أما فى البصرة فقد شاع فيها الفخر والهجاء والمديح وكان على رأسهم «جرير» الشاعر المشهور .

ولم تكن هذه الحواضر فقط هى التى شاع فيها الشعر ، بل إن الأمر كان أكثر من ذلك اتساعاً نحو الشرق حيث ، خراسان ، وغرباً نحو الشام ومصر ، وإن كان الشعر فى الجزيرة الفارسية أرق وأكثر شيوعاً منه فى الشام ومصر .

وجملة القول أن الأمة العربية قد تقدمت عسكرياً واقتصادياً ، واستقرت سياسياً وتدفقت إليها الموارد بالخيرات ، وعظمت مكانة الدولة فى الداخل والخارج وكل ذلك كان يتردد صداه فى الأدب . والذى نتوقعه حينئذ أن ينمو شعر المديح وتملق الحكام والدعاية لهم طمعاً فى جوائزهم ، وأخذ الشعراء يأخذون أنفسهم بتجويد العبارة واختيار الألفاظ . فبلغ الشعر بذلك مستوى رفيعاً .

فمن شعراء المديح : نصيب ، وكعب بن معدان الأزدى ، وزياد الأعجم .

وظهر بجوار هؤلاء شعراء هجاءون أمثال ابن مفرغ ، وثابت بن كعب .

ويشيع فى عصر بنى أمية ما يسمى « النقائض » نتيجة لاشتعال نار الخلافات والفتن والعصبيات بين القبائل يؤازر ذلك عوامل اجتماعية . تتجلى فى شيوع اللهو ، وكثرة الفراغ ، وعوامل عقلية تتجلى فى نمو العقل العربى ومرانه الواسع على الحوار والجدل والمناظرة .

وأشهر من وقفوا حياتهم على تلك النقائص القبلية مستلهمين فيها ظروف العصر وأحداثه السياسية جرير والفرزدق وهما ينتميان إلى قبيلة تميم .

وإذا كان شعر المديح تزلفا إلى الرؤساء وأشادة بهم ، وشعر الهجاء على المستوى الفردى أو القبلى نوعاً من تسلية الحكام وتزجية أوقات الفراغ فالذى نتوقعه أن يكون الشعر السياسى هو الغرض السائد فى هذا العصر تبعاً للظروف التى ذكرنا جانباً منها ، ولشيوع المذاهب السياسية الآتية :

[ا] الزبيريون : وهم أتباع عبد الله بن الزبير ويمثلهم من الناحية الفنية عبيد الله بن قيس الرقيات .

[ب] خوارج : وهؤلاء هم الذين خرجوا على « على ومعاوية » ويعتقدون أن الرئاسة ليست وقفاً على طائفة دون أخرى ولكن يدعون إلى أن الناس سواسية عند الله ، وأفضلهم أتقاهم وأصلحهم للرياسة ولو كان عبداً حبشياً بغض النظر عن انتمائه إلى الشيعة أو إلى بنى أمية أو انحداره من قبيلة شريفة أو وضيعة ويمثل هؤلاء الشعراء من الوجهة الفنية : الطرماح .

[ح] الشيعة : وهى الفئة المناهضة للحكم الأموى الداعية لسلالة على كرم الله وجهه فقد استمر كثير من هذه الطائفة يؤمنون بأن أبناءه وأحفاده أهل الخلافة الحقيقيون ، وأصحابها الشرعيون وأن الأمويين قد اغتصبوها ، وينبغى أن تنتزع منهم وعلى نحو من الاصرار العنيف من شعراء الخوارج كان إصرار شعراء الشيعة الذين انقسموا فيما بينهم طوائف ولكل طائفة أكثر من شاعر ويحتفظ لنا كتاب « مقاتل الطالبيين » لابى الفرج الاصبهانى ، ومراثى الحسين للطبرى ، بنماذج من أشعار كلها دموع وبكاء وزفرات على آل على وأحفاده . وقد تحولت هذه المراثى الباكية إلى تحريض على الاخذ بالثأر وحث على سفك الدماء ، ومن أشهر شعراء الشيعة : كثير بن عبد الرحمن ، والكميت بن زيد الأسدى صاحب القصيدة المشهورة التى مطلعها :

طربت وما شوقاً إلى البيض أطرب ... ولا لعباً منى وذو الشيب يلعب

وفيها بنى هاشم رهـــط النبي فإننى ... بهم ولهم أرضى مراراً وأغضب

— وفى مقابل هذه الطوائف نجد عدداً وافراً من شعراء الحزب الحاكم الذين يدعون لبنى أمية ويتصدون للهاجين لهم ، وقليلا ما كان ذلك صدوراً عن عقيدة — بل كان فى أكثره تملقاً إلى الحكام ورغبة فى الحصول على العطاء . وهذا الصنف الأخير كثير بين الشعراء بل إننا نجد من أعداء بنى أمية من يمدحهم لينال عطاءهم كعبيد الله بن قيس الرقيات شاعر الزبيريين الذى مدح عبـــد الملك مروان عاهل بنى أمية الكبير .

أما النوع الأول الذى يمدح عن اقتناع ويدعو للأمويين عن حب وولاء فنستطيع أن نقول إن شعره قد تجاوز مجرد المديح إلى نضال عن الحكم وتوكيد لدعوة معينة — وهذا هو الشعر السياسى الذى حمل لواءه الأمويون أنفسهم أمثال الوليد بن عقبة — ونجد غير المسلمين يخوضون هذا الميدان ويمثل ذلك الأخطل التغلبى وهؤلاء الشعراء كانوا أقرب إلى قلوب بنى أمية يجزلون لهم عطاء أكثر من الذين يتكسبون بشعرهم كما صنع بنو أمية مع المتوكل الليثى وكما صنع المروانيون مع أبى العباس الأعمى الشاعر المكى فقد كان من شعراء بنى أمية المعدودين المقدمين فى مدحهم والتشيع لهم وعدى بن الرقاع ، وكان مقدماً عندهم كذلك ويكاد يكون شعره خاصاً بالوليد ابن عبد الملك

ومن هذا نعلم أن الشعراء فى هذا العهد الأموى كانوا طليعة الاتجاهات المتناقضة فى ميادين السياسة ، وأنهم كانوا من أحزابهم بمنزلة الصحف الحـــزبية فى عصرنا الحديث ، ينطق الشاعر عن حزبه ويتحدث بلسانه ، ويهاجم فى عنف أو غير عنف الأحزاب الأخرى ويتصدى لأصحاب السلطان فيها حكاما أو شعراء أو خطباء .

* * *

وإذا كنا قد نظرنا إلى الطوائف السابقة فوجـــدناها زبيريين . وخوارج وشيعة وأمويين ، فإننا نعثر بجوارها على عدد من الشعراء قد عاشوا للفن وصدروا عن أحاسيسه ، وتكونت لهم سمات يعرفون بها ، ولا يتسع لنا المقام للتحدث عن مميزات كل شاعر . وحسبنا هنا أن نشير إلى طوائفهم حسب الفنون الذين عرفوا بها .

— شعراء غزليون ، وهؤلاء ينقسمون بدورهم فريقين : فريقاً عرف بحديثه الصريح وجرأته فى وصف محاسن النساء وشيخ هؤلاء عمر بن أبى ربيعة ، وعلى منهجه سار الأحوص ، والعرجى .

وفريقاً عرف بتهيامه بواحدة ، يخلص لها ويكن أحاسيس الولاء والوفاء وهؤلاء هم العذريون الذين عاشوا للحرمان : ومنهم قيس بن ذريح وجميل بن معمر وكان للقرآن الكريم وتعاليم الدين وتقاليد القبيلة والبادية آثارها فى أشعارهم .

— وعاصر هؤلاء شعراء عرفوا باللهو والتماجن والتهاون فى شأن الدين والجرأة على السماحة الخلقية والتجاوز فى الاستخفاف بالقيم . ومن هؤلاء كان الوليد ابن زيد . وأبو الهندى .

— ومن الطبيعى أن يعايش هؤلاء شعراء آخرون تأثروا بالدين وانقطعوا للعبادة ، وحملوا لواء الدعوة إلى الزهادة فى الحياة الدنيا متأثرين فى ذلك بالقرآن والحديث وسيرة الصحابة ، وقد هالهم أن ينغمس فريق فى المجون على مرأى ومسمع من الخليفة ، وأن يجدوا ذلك فى مكة نفسها مولد الرسول والبلد الحرام — وفى المدينة المنورة معقل الإيمان ودرع الإسلام ، فنهضوا برسالة أملاها عليهم دينهم وكتابهم فأخذوا يدعون إلى الزهد فى الحياة ويعتصمون بتعاليم الدين ويصرخون فى وجه الخارجين عليها ، ومن هؤلاء الشعراء أبو الأسود الدؤلى ، وسابق البربرى .

— وقد وجدت الطبيعة من يخلص لها ويأوى إلى جمالها يتعبد فى محرابها ولم يكن حديثه عنها مجرد صورة تعرض فى ثنايا القصيد بل كانت له وقفات طويلة متأنية أمام لوحات الجمال فيها . . ويمثل هذا الفريق فى العصر الأموى « ذو الرمة » شاعر الطبيعة المبدع .

وكما نهض الشعر فى هذا العصر نهض النثر أيضاً . بل كانت بعض فنونه أكثر ازدهاراً من الشعر ، ففن الخطابة بصفة خاصة قد تنوع ونهض . وقد كان الأمويون عامة وولاتهم وقواد جيوشهم خاصة خطباء ومن يجهل فى هذا المقام زياد بن أبيه والحجاج بن يوسف . وغيرهما من أعلام الخطابة السياسية »

وفى المناسبات المختلفة كالعيدين وأول العام الهجرى . وفى حفلاتهم العامة والخاصة قام خطباء المحافل فرفعوا عقيرتهم بخطب جاءت غاية فى الفصاحة والبيان

وكان لخطبهم تقاليد مرعية فى البدء والختام والتأثر بمآثر الشعر والنثر ومن هـذا الفريق الأحنف بن قيس .

وفى محاذاة الشعر الزاهد الذى شاع فى هذا العصر نذكر خطباء الوعظ والقصص وقد ظفر « الحسن البصرى » الواعظ الزاهـــد بعناية كبيرة من مؤرخى الأدب فى هذه الفترة .

* * *

فإذا تجاوزنا فن الكلمة المسموعة شعراً وخطابة إلى الكلمة المكتوبة ألفينا فنوناً متنوعة ، لكل فن فيها خصائصه وكتابه ، فقد سار أمراء بنى أميـــة على نهج الرسول وخلفائه فى كتابة الرسائل وتدوين الدواوين ، وأشرف عليها كتاب من العرب .

* * *

وسنقدم إليك نماذج متنوعة من أدب هذا العصر : إن لم نقف بك عند كل اتجاه فحسبنا أن نرسم فيها صورة عامة ، نستشعر بها بعض آيات الفن والجمال(*) .

(*) دكتور سعد شلبى

من سورة لقمان(*)

بسم الله الرحمن الرحيم

أ لم (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (٢) هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ (٣)
الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤)
أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ
يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا
هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (٦) وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى
مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ
أَلِيمٍ (٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ (٨)
خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٩) خَلَقَ السَّمَوَاتِ

(*) الآيات ١ : ٢٢ ٠

(١) ا لم : حروف يتألف منها ومن غيرها الكلام ، والقراءة ، والكتابة ، ومع ذلك لم يستطع العرب — وهم المشهورون بالفصاحة ، أن يؤلفوا من حروفهم وهي في متناول أيديهم قرآنا ، أو عشر سور ، أو سورة ، أو آية ترتقي الى مستوى القرآن الكريم ٠٠ وهذا دليل على الاعجاز ٠٠ وذلك أقصى درجات التحدى ٠

وفي هذه الحروف التي تتقدم السور اشارة الى رغبة الاسلام في معرفة القراءة والكتابة ، وحرصه عليهما ، فهما باب المعرفة ، وطريق العلم ٠

(٢) تلك آيات الكتاب : من هذه الحروف يتكون القرآن ٠

(٤) يوقنون : يعتقدون ويؤمنون ٠

(٦) لهو الحديث : ما يلهى من الكلام : كالخرافات ، وكل ما لا نفع فيه ، ويتخذها هزوا : يتخذ سبيل الله وطريقه هزوا : أى يستهزئ بسبيل الله ٠

(٧) وقرا : صمما ، فبشره : المراد فأنذره ٠

بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ، وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ ، وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ(١٠) هَـٰذَا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَـلَالٍ مُبِينٍ(١١) وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ(١٢) وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ(١٣) وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ(١٤) وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ، وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ(١٥) يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللهُ

---

(١٠) عمد : أعمدة ، رواسى : جبالا ، أن تميد بكم : لئلا تضطرب بكم ، بث فيها : نشر فيها ، زوج : صنف .

(١١) مبين : واضح .

(١٢) لقمان : أحد الحكماء ، وقيل هو أحد الأنبياء بدليل تسمية السورة باسمه (يونس ، هود ، يوسف ، ابراهيم ، طه ، يس ، محمد) حميد : محمود .

(١٤) وهنا على وهن : ضعفا على ضعف ، المصير : المرجع .

(١٥) أناب : رجع وتاب .

إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ[١٦] يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ[١٧] وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ[١٨] وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ[١٩] أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ، وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ[٢٠] وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا : بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ[٢١] وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ[٢٢] .

---

(١٦) مثقال : ثقل ووزن ، خردل : نبات صغير الحب يضرب به المثل فى الصغر .

(١٧) عزم الأمور : الأمور الهامة الواجبة .

(١٨) لا تصعر خدك : لا تمله ، كما يفعل المتكبرون — والمراد : لا تتكبر ، مرحا : فرحا شديدا .

(١٩) اقصد : توسط ، اغضض : اخفض .

(٢٠) سخر : أخضع وذلل ، اسبغ : أتم ، والأسباغ الافاضة والشمول .

(٢١) السعير : النار الملتهبة .

(٢٢) يسلم : يستسلم الى الله ، الوثقى : مؤنث الأوثق بمعنى : الأحكم ، عاقبة الأمور : مرجعها ونهايتها ، يتصرف فيها كيف يشاء .

بعض ما تشير إليه الآيات

(الآيات من ١ : ٩) — أن القرآن يدعو إلى العلم والإيمان والتعقل واليقين، ويحث على الإحسان والجد فى الحديث وترك العبث .

— أن القرآن الكريم معجز بلفظه ومعناه فمن تلقاه دون عناد ، وأقبل عليه بتقوى وإحسان وجد فيه هدى ، ووصل به إلى الفـــلاح ، وأدرك فيه نواحى الإعجاز ، بخلاف من عاند أو كابر أو حاول الاستهزاء به ، والاشتغال عنه بالأحاديث التافهة ، أو تغاضى ، وتشاغل عنها فلم يستمع إليها فلن يدرك جماله ولن يقر بإعجازه .

— الإسلام يدعو إلى طهارة النفس (الذين يقيمون الصلاة) ويحرص على طهارة المال (ويؤتون الزكاة) فمن طهر نفسه وماله وجد الطريق إلى اليقين ، وإلى الفلاح .

— « فبشره بعذاب أليم » تعبير لطيف جميل . فكلمة « بشره » تجعل الكفار يقبلون بشغف وإصغاء فيفاجئون بوعيد عنيف يهزهم « عذاب أليم » وجزاء ونعيم للمؤمنين « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات نعيم » وذكر « إن » التى تفيد التوكيد ، وتقديم الخبر على المبتدأ فى « لهم جنات » يتسق مع توجيه هذه الآية إلى الكفار لأنهم ينكرون ولا يتوقعون ما تضمنته من تعذيب لهم ، ومن نعيم للمؤمنين .

الآيتان (١٠ ، ١١) تدلان على قدرة الله وجلاله : خلق السموات خلق الجبال ، والدواب ، والتكاثر فى النبات « فأنبتنا فيها من كل زوج . كما تدلان على عظمته فى ألوهتية فجمال المصنوع يشير إلى عظمة الخالق المبدع . . وبعد هذا كله . . كيف يعبد الكافرون غيره ؟ ! إن هذا لشىء عجاب ! !

وفى هذا العالم كواكب ونجوم أكبر حجماً من الأرض ، ولو تسنى لنا أن نقترب منها ، أو لو اقتربت هى منها لرأينا النسبة بين الأرض وبينها كبيرة جداً ورأيناها كجبال معلقة بين السماء والأرض دون عمد تقوم عليها . فإذا حجبت هذا الرؤية الكاشفة رأينا السماء قائمة على الأرض كأنها السقف المرفوع .

وقد أتى صدر الآية رقم ١٠ « خلق السموات بغير عمد . . . » بصيغة الماضى، ثم أتى ختامها بصيغة المتحدث المباهى المفاخر بنفسه « وأنزلنا من السماء ماء ... » إشارة إلى أن التكاثر بين الأزواج فيه تعظيم وإجلال للخالق أكثر من رفع السموات بغير عمد ، وإلقاء الرواسى على الأرض حتى لا تميد.

ومن هنا أتى ختام الآية(١٠) « زوج كريم » وختام الآية (١١) « بل الظالمون فى ضلال مبين» ختاماً مناسباً : ففى التكاثر زيادة وكرم ، وفى إنكار قدرة الله وعبادة غيره مع هذا المقدار الكبير من العظمة والقدرة ضلال أى ضلال « ضلال مبين » !!

(الآية رقم ١٢) أنعم الله على لقمان بالحكمة ، فشكر الله فزاده الله خيراً وبركة « ومن شكر فإنما يشكر لنفسه»[١] « لئن شكرتم لأزيدنكم[٢] » ، فشكر الله لا ينال الله منه شيئاً فالله غنى عن العالمين ، ولكن الإنسان الشاكر هو الذى ينال كل خير.

« أن أشكر لله » « أن » تفسيرية وفى ذلك دلالة على أن رأس الحكمة شكر الله.

(الآيات : ١٣ : ١٩) تتضمن وصايا لقمان لولده ، ووصية الله للإنسان . . فالأب يوصى ولده : لا تشرك بالله ، والله يوصى الإنسان أن يشكر والديه ، وتلك هى العلاقة السوية ، والصلة الطيبة بين الآباء والأبناء ، وبين الله عز وجل وعباده ، فمن الطبيعى أن يدعو الأب ولده إلى الإيمان بالله ، ومن تعظيم الله للوالدين أن أمر الأبناء بالبر للآباء ، وجعل شكرهما فى المنزلة بعد شكر الله «أن أشكر لى ولوالديك»..

فإذا اضطربت العلاقات ، وانحرف الآباء فدعوا الأبناء إلى الشرك بالله . . . تلك مشكلة .. يضع الله أمامنا حلها الرائع «لا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفاً» ليس هناك ما يسوغ إساءة الآباء ، حتى وإن كانت هذه الإساءة من أجل تعظيم الله وعبادته إن حساب الآباء على ما ارتكبوا من إساءة للأبناء أو لغير الأبناء ليس من شأن الأبناء ، بل أمرها متروك إلى الله يجزى كلا بعمله « ثم إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون » .

ثم تأتى بعد ذلك وصايا لقمان لولده .

فالاعتراض بوصية الله بين وصايا لقمان يشير إشارات لطيفة إلى ما يأتى :

[ا] أن الإحسان إلى الوالدين لون من ألوان الشكر لله .

[ب] أن منزلة الوالدين عظيمة جداً عند الله .

---

(١) سورة النحل آية ٤٠ . (٢) سورة ابراهيم آية ٧ .

وقوله تعالى : « وهنا عن وهن» حال من المفعول (الهاء فى حملته) وهو الجنين فى بطن أمه، وفى ذلك إشارة إلى الرعاية الطبيعية التى زود الله بها الأمهات لسلامة الأجنة.
أو حال من الفاعل «أمه» وفى ذلك إشارة إلى معاناة الأمهات فى سبيل الأبناء .
وسواء كان هذا أم ذاك فالعرفان بالجميل يقتضينا أن نشكر الله ونشكر الأمهات .

ومن وصايا لقمان :

(آية ١٦) «يا بنى إنها إن تك مثقال حبة ... » أى اعبد الله وأنت تعلم أنه عالم بكل شىء ، كاشف لكل شىء ، فهو اللطيف الذى ينفذ علمه وقدرته إلى كل شىء خفى ، وهو الخبير المتمكن من كل شىء ، ومن عبد الله على هذا الأساس جاءت عبادته خالصة خاشعة مقبولة عنده عز وجل .

(آية رقم ١٧) « يا بنى أقم الصلاة . . . . » يوصى لقمان ولده فى هذه الآية :

[ا] بإقام الصلاة : ليحسن العلاقة بينه وبين الله .
[ب] بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر : ليؤدى رسالته الاجتماعية .
[حـ] بالصبر عند المصيبة : لأن الصبر يمد الإنسان بالعزيمة التى تجعله يقوم بالتكاليف ويؤدى ما عليه من حقوق ، « واصبروا إن الله مع الصابرين(١) » ، ومن غير الصبر لا فلاح للإنسان . « والعصر إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » .

(آية رقم ١٨ ، ١٩) « ولا تصعر خدك للناس . . . » يوصى لقمان ولده فى هاتين الآيتين :

[ا] بالتواضع والاتزان فى المشى ، « ولا تمش فى الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ، ولن تبلغ الجبال طولا(٢) »
[ب] غض الصوت : « إن أنكر الأصوات لصوت الحمير » .

وعند تأمل هذه الوصايا نلحظ :

١ — أن لقمان كان حريصاً كل الحرص على أن يحمل ولده من حيث الباطن (الآيات ١٣ ، ١٦ ، ١٧) ومن حيث الظاهر شكلا وحركة ، وصوتاً (الآيتان ١٨ ، ١٩) .

---

(١) سورة الأنفال آية ٤٦ . (٢) سورة الاسراء آية ٣٧ .

٢ — إن لقمان كان شفيقاً بولده متودداً إليه « يابنى ، يابنى ، يابنى . . . » صيغة تكررت أكثر من مرة . وفى ذلك ما يجذب المتعلم نحو المعلم : فأحرى به حينئذ أن يفيد منه ، وأحرى بالأستاذ أن يفيد . فليتنا نحن المعلمين نتعلم من لقمان كيف نتعامل مع تلاميذنا .

(الآيتان رقم ٢٠ ، ٢١) : « ألم تروا أن الله سخر لكم . . . »

فيهما دعوة إلى النظر ، والتأمل الذى لا يقف عند الظاهر بل يضم إليه الباطن أيضاً ، فالتأمل والنظر ينبغى أن يتسعا حتى يشملا السموات والأرض : وأن يتعمقا حتى يتجاوزا الظاهر إلى الباطن ، يتأمل الإنسان السماء ، ويتأمل الأرض ويتأمل نفسه ، ويتأمل فى كل ذلك الظاهر والباطن . وبذلك يكون الإسلام قد دعا إلى العلم والاستقراء والتجريب دعوة شاملة عميقة ، ومن هنا كان ختام الآية مؤكداً بمنطوقه ما أشار إليه صدرها بمفهومه ؛ فحرّم الجدال بغير علم أو سند أو دليل « ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ، ولا هدى ولا كتاب منير . إنه يريد الحوار المنتج ، ويكره الجدل العقيم .

(الآية ٢١) : تنهى عن التقليد الأعمى ، وتدعو إلى الفكر ، والاستقلال المستنير بالرأى ؛ فكره من الكفار أن يقلدوا الآباء من غير فكر ، واعتبر تقليدهم استجابة لدعوة شيطان « قالوا بل نتبع ماوجدنا عليه آباءنا أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير » .

(الآية ٢٢) فى هذه الآية لا يريد الله منا أن نسلم وجوهنا إليه أى إسلام ، ولكنه اشترط فى الذى يسلم وجهه إليه ليكون مستمسكا بالعروة الوثقى أن يكون محسناً ، أما الذين يتواكلون ويتكاسلون ويظنون بتواكلهم هذا أنهم متوكلون على الله فقد أخطأهم الصواب . إن الله يقول « ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن » إن التواكل غير مقبول عند الله والفوز لا يكون مضموناً إلا للمحسنين المجدين .

والعاقبة عند الله . . يجزى كل إنسان بعمله .

« فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره(١) »(*) .

(١) سورة الزلزلة آية ٧ ، ٨ .

(*) دكتور سعد شلبى

من سورة الأحزاب

بسم الله الرحمن الرحيم

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا(١) نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ(٢) إِذْ جَاءَتْكُمْ(٣)
جُنُودٌ(٤) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا(٥) وَجُنُودًا(٦) لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللهُ
بِمَا تَعْمَلُونَ(٧) بَصِيرًا . إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ(٨) وَمِنْ أَسْفَلَ(٩)
مِنْكُمْ ، وَإِذْ زَاغَتِ(١٠) الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ(١١)
وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا(١٢) . هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا

---

(١) اذكروا قصة الأحزاب وهى وقعة الخندق فى شهر شوال سنة خمس للهجرة .

(٢) يوم الخندق وهى نعمة على المؤمنين بعدكم .

(٣) الى المدينة .

(٤) جنود الأحزاب فى نحو ١٢ ألفا ولم يكن مع الرسول سوى ثلاثة آلاف فيهم المنافقون والذين فى قلوبهم مرض .

(٥) عاصفة فى ليال مظلمة باردة .

(٦) من الملائكة .

(٧) من حفر الخندق والتأهب للقتال .

(٨) من أعلى الوادى من جهة المشرق .

(٩) من أسفل الوادى من قبل المغرب .

(١٠) انحرفت عن مستوى نظرها ولم تستقر على حال خوفا ورعبا .

(١١) وظيفة القلب أن يمد الجسم بالحياة ، وهذا مبالغة فى بيان ما هم فيه من فزع .

(١٢) تظنون بالله تعالى الذى وعدكم النصر الظنون الكثيرة لأن هول الموقف أنساكم ما وعد ربكم . وقوله (الظنونا) يرسم بالألف ويوقف عليه بالألف ، وتحذف ألفه وصلا .

شَدِيدًا[١٣] . وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ[١٤] وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ[١٥]
مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا[١٦] . وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ[١٧] يَا أَهْلَ
يَثْرِبَ[١٨] لَا مُقَامَ[١٩] لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ
النَّبِيَّ يَقُولُونَ : إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ[٢٠] وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ[٢١] إِنْ
يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا . وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا[٢٢] ثُمَّ سُئِلُوا
الْفِتْنَةَ[٢٣] لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا[٢٤] . وَلَقَدْ كَانُوا
عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ[٢٥] لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ[٢٦] وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ
مَسْئُولًا . قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ
وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا . قُلْ[٢٧] مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ

---

(١٣) اضطربوا اضطرابا شديدا .
(١٤) الذين يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم .
(١٥) ضعف ايمان لحداثة عهدهم بالاسلام .
(١٦) باطلا .
(١٧) من المنافقين .
(١٨) المدينة ومن أسمائها طيبة .
(١٩) اقامتكم فى هذا الميدان خطر عليكم .
(٢٠) ظاهرة غير محصنة .
(٢١) لأن الخندق محيط بها وعليها عسكر المسلمين .
(٢٢) دخلها عليهم الأعداء من جميع جوانبها .
(٢٣) قتال الرسول وأصحابه .
(٢٤) ما صبروا على اجابة الداعى لحرب الله ورسوله وما استمروا بهذه البيوت الا قدر ما يحملون سلاحهم ويخرجون لقتال النبى معهم .
(٢٥) قبل غزوة الأحزاب .
(٢٦) لا يفرون مدبرين جبنا وانهزاما .
(٢٧) يا رسول الله قل لهؤلاء المنافقين الفارين .

اللهِ إنْ أرَادَ بِكُمْ سُوءًا أوْ أرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ(٢٨) لَهُمْ
مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا . قَدْ يَعْلَمُ(٢٩) اللهُ الْمُعَوِّقِينَ(٣٠)
مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ(٣١) ، هَلُمَّ(٣٢) إلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ(٣٣)
إلَّا قَلِيلًا . أشِحَّةً(٣٤) عَلَيْكُمْ فَإذَا جَاءَ الْخَوْفُ(٣٥) رَأيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ
إلَيْكَ تَدُورُ أعْيُنُهُمْ(٣٦) كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ(٣٧) الْمَوْتِ ، فَإذَا
ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ(٣٨) بِألْسِنَةٍ حِدَادٍ أشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ(٣٩)
أولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأحْبَطَ اللهُ أعْمَالَهُمْ ، وَكَانَ ذَلِكَ(٤٠) عَلَى اللهِ

---

(٢٨) التفت من الخطاب الى الغيبة ومقتضى الظاهر أن يقال (ولا تجدون) وذلك لأنهم فى غيبة وغفلة فهم غير جديرين بالخطاب .

(٢٩) أتى بحرف التحقيق لأنه يخاطب قوما فى اضطراب وفتنة وعبر بالمضارع فى (يعلم) ما يقع منهم .

(٣٠) الذين يمنعون الناس من نصرة الرسول . وهم المنافقون واليهود .

(٣١) لأصحابهم وعشائرهم .

(٣٢) هلم اسم فعل أمر بمعنى أقبل . أى تعالوا الى ما نحن فيه من الاقامة فى الضلال .

(٣٣) القتال والحرب .

(٣٤) جمع شحيح ، أى يبخلون عليكم أيها المؤمنون بالنفقة والنصرة والاعانة عند بدء القتال .

(٣٥) قامت الحرب .

(٣٦) تدور الأحداق فى الأعين فهو مجاز مرسل علاقة المحلية أطلق المحل وأراد الحال ، وهذا الدوران من الهلع والجبن .

(٣٧) يغيب ويكون فى سكرة .

(٣٨) طعنوا فيكم .

(٣٩) على أخذ الخير وهو الغنيمة .

(٤٠) الذى تقدم كله من نصر المؤمنين على قلتهم وخذلان المشركين على كثرتهم .

يَسِيرًا . يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا(٤١) ، وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ(٤٢) يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ(٤٣) فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ(٤٤) وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ(٤٥) مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا(٤٦) . لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا . وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ(٤٧) الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ ، وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ . وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا . مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ ، وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا . لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ(٤٨) ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا . وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا(٤٩) بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ، وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ

---

(٤١) عن المدينة .

(٤٢) لحصار المدينة وقتال المؤمنين .

(٤٣) خارجون من المدينة الى البادية جبنا عن الحرب .

(٤٤) لينحازوا الى الظافرين فى النهاية وعند القاء السلاح .

(٤٥) أى لم ينصرفوا الى المدينة .

(٤٦) دفعا للوم ورياء للمسلمين .

(٤٧) المخلصون الصادقون .

(٤٨) ترغيبا للمؤمنين وتحذيرا للمنافقين .

(٤٩) وهم الأحزاب من قريش ومن تآمرهم وجاء معهم لغزو المدينة .

وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا . وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ(٥٠) مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ(٥١) ، وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ، فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ، وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ(٥٢) وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا(٥٣) وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا .

بعض ما تشير إليه الآيات

نزلت هذه الآيات فى غزوة الأحزاب ،وهى غزوة الخندق التى حدثت فى شهر شوال من السنة الخامسة للهجرة .

وسببها أن النبي ﷺ ذهب فى دية إلى بنى النضير ، وهم عشيرة من اليهود ، فأجمعوا أمرهم على الغدر به وقتله ، وصعدأحدهم على سطح منزل كان الرسول يجلس تحت جداره وفى ظله ليلقىعليه حجرا فيقتله ، وحين أحس الرسول بذلك قام مسرعاً وجمع أعوانه لغزو بنى النضير.فنصره الله عليهم وأجلاهم عن المدينة . فغضبوا لذلك وذهب زعماؤهم إلى مكة لتحريض القرشيين على حرب النبي وأتباعه.ففرحت قريش بذلك . ثم ذهب الوفد اليهودى إلى قبيلة غطفان وأعلموهم بمحالفة قريش ، وجعلوا لهم تمر خيبر مدة سنة إن هم ناصروهم . وكانت نتيجةهذه المساعى أن تجمعت قبيلتا قريش وغطفان ومعهم اليهود فى جيش بلغت عدته نحو اثنى عشر ألفاً بمعداتهم على رأسه أبو سفيان بن حرب .

---

(٥٠) ناصروهم بانتقاضهم على النبى وهم اليهود من بنى قريظة .

(٥١) حصونهم ومعاقلهم .

(٥٢) المراد بالأرض المزارع وبالديار الحصون وبالأموال النقود والماشية والأثاث .

(٥٣) قيل انها أرض خيبر ، وقيل أن هذا وعد للمسلمين بكل أرض يفتحونها .

وحين علم الرسول بذلك دعا قومه وأخبرهم خبر عدوهم وشاورهم فى الأمر ، فأشار سلمان الفارسى بحفر خنـــدق فى موضع المخافة من سور المدينة ، وقد شارك النبي مع المسلمين فى حفره . وحمل التراب على ظهره ، وهكذا أخذ العمل صورة جماعية رائعة ، فكان أبو بكر وعمر رضى الله عنهما يحملان التراب فى أثوابهما لعدم توفر المكاتل (المقاطف) ، وكان إذا احتاج أحـــد العاملين لحاجة استأذن الرسول فى قضائها ، ثم يعود فيستأنف العمل ، وقد لوحظ أن المنافقين كانوا يتباطئون ويخذلون غيرهم بغية تخريب العمل الذى أمر به الرسول .

وقد استمر العمل هكذا أكثر من عشرين يوما ، إلى أن بان الأحزاب بظاهر المدينة فى اثنى عشر ألفاً بعدتهم وعتادهم ، بينما لم يزد عدد المسلمين عن ثلاثة آلاف عسكر بهم الرسول فى سفح جبل يطل على المدينة بحيث جعل ظهر جيشه إلى الجبل ، وجعل الخندق بينه وبين العدو ، وفى نفس الوقت عقد عهداً مع بنى قريظة اليهود داخل المدينة وحولها أن يلزموا السكينة ، وألا يقوموا بعمل فيه إضرار بالمجهود الحربى الإسلامى .

مضت مدة ليس بين الفريقين إلا الرمى بالنبل والحجارة ، وبعض المبارزات الفردية ، ولـكن حدث مالم يكن فى الحسبان فقد نقضت قبيلة قريظة عهدها مع النبى فى هذا الوقت العصيب هنا اشتد الأمر على المسلمين وخيف على من فى المدينة من النساء والأطفال ، فأرسل الرسول قسما من جيشه لحمايتهم ، ولهذا اضطربت النفوس ، وزاغت الأبصار ، وأرجف المنافقون «ماوعدنا الله ورسوله إلا غروراً» وحين اشتدت الأزمة هكذا . أراد ربك الانتقام من الظالمين المعتدين وهزيمـــة المشركين . فأرسل عليهم ريحاً عاصفة فى ليال مظلمة باردة قوضت خيامهم ، وكفأت قدورهم فوقع الرعب فى قلوبهم ، وولوا الأدبار يتقدمهم أبو سفيان «وكفى الله المؤمنين القتال» .

ولما انتهى أمر الأحزاب بالصورة المذكورة أخذ القرآن الـكريم يتحدث عن أخبار الذين نقضوا عهدهم مع الرسول وقت المحنة . وظاهروا المشركين أثناء الحصار وهم اليهود من بنى قريظة . فغزاهم الرسول وانتصر عليهم . فقتل بعضهم وأسر الآخرين ، وأورث الله المؤمنين أرضهم وديارهم وأموالهم .

ونستطيع بعد هذا العرض السريع أن نلمح مايلى :

١ — فى أثناء الحرب تنكشف فى المجتمع — أى مجتمع — أمور كانت مستترة قبل الحرب . ففى المدينة زمن غزوة الخندق وجدنا المجتمع يتكون من : طبقة المؤمنين الصادقين المخلصين وهم الكثرة الغالبة ، وطبقة المسلمين فى الظاهر دون الباطن وهم المنافقون ، وطبقة ثالثة حاقدة وهى طبقة اليهود ، وقد استطاع الرسول معتمداً على الطبقة الأولى بعد الله أن ينتصر على الأعداء .

كما أن من وسائل النصر على الأعداء . إعداد العدة ، واتخاذ الحيطة والعمل بكل تدبير وحكمة ، مع المثابرة والثبات واستخدام الكيد والخديعة ، كل ذلك يقود المجاهدين الصادقين إلى النصر المؤزر ، ويصيب المعتدين الآثمين بالخذلان المبين .

والشدائد دائماً تظهر النفوس على حقيقتها ، فيستبين المؤمن الصادق من المنافق المراوغ ، فلا يزداد المؤمن إلا إيماناً وتثبيتاً . أما المنافق فكيده فى تباب .

وأخيراً لا نصر ولا نجاح بدون مشقة أو تعب ، وعمل دائب ، ورضا بالمكاره والخطوب .

من سورة الحج

بسم الله الرحمن الرحيم

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ(١) شَيْءٌ عَظِيمٌ . يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى، وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ .

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ(٢) ، كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ .

يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ . فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ(٣) ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ(٤) مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ، وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ

---

(١) زلزلة الساعة : ما يصحب يوم القيامة من هزات عنيفة .

(٢) مريد : متمرد .

(٣) علقة : قطعة جامدة من الدم .

(٤) مضغة : قطعة من اللحم بمقدار ما يمضغه الانسان .

وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ . ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى ، وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ .

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ . ثَانِيَ عِطْفِهِ(٥) لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ . ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ .

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ(٦) فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ . يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَلَا يَنْفَعُهُ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ . يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ(٧) .

إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ، مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ . وَكَذَٰلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ .

---

(٥) أى متكبر . (٦) أى من غير ثبات فى الايمان . (٧) الصاحب .

خطبة أبي حمزة الشاري

تمهيد : أبو حمزة الشاري هو أحد زعماء الخوارج في أواخر عصر بني أمية استولى على الحجاز وجاء إلى مكة على رأس جيش من الخوارج سنة ١٢٩ هـ وقتل عند مكة بعدها بعام تقريباً . وكان أصحابه يرفعن العمائم السود على رؤوس الرماح فأفزعوا الناس وكره والي مكة من قبل الأمويين قتالهم في مكة لحرمتها ، فأخلاها لهم ، ودخلوها بغير قتال ، وخطب فيها أبو حمزة خطبته الآتية ، وكان قد بلغه أن أهل مكة ينتقصون أصحابه ، ويعيبون عليهم حداثة سنهم وخفة عقولهم .

النص

« يَا أَهْلَ مَكَّةَ : لَا تُعَيِّرُونِي بِأَصْحَابِي ، تَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ شَبَابٌ ، وَهَلْ كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ — صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — إِلَّا شَبَابًا ، شَبَابٌ وَاللهِ مُكْتَهِلُونَ[1] : عَمِيَّةٌ[2] عَنِ الشَّرِّ أَعْيُنُهُمْ بَطِيئَةٌ عَنِ الْبَاطِلِ أَرْجُلُهُمْ .

قَدْ نَظَرَ اللهُ إِلَيْهِمْ فِي آنَاءِ اللَّيْلِ[3] ، مُنْثَنِيَةً أَصْلَابُهُمْ[4] بِمَثَانِي[5] الْقُرْآنِ ، إِذَا مَرَّ أَحَدُهُمْ بِآيَةٍ فِيهَا ذِكْرُ الْجَنَّةِ بَكَى شَوْقًا إِلَيْهَا ،

---

(١) مكتهلون : من اكتهل الرجل أي صار كهلا وهو من كانت سنه بين الثلاثين والخمسين ، يريد أن لهم من الرزانة وسداد الرأي والصلاح ما للكهول

(٢) عميه : العمي : الأعمى ، والمراد انهم يعرضون عن الشر .

(٣) آناء الليل : ساعات الليل .

(٤) الأصلاب : جمع صلب وهو عمود الظهر ، والمراد ظهورهم .

(٥) المراد بالمثاني هنا : جميع القرآن ، ويسمى جميع القرآن مثاني لاقتران آية الرحمة بآية العذاب .

وَإِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا ذِكْرُ النَّارِ شَهِقَ شَهْقَةً[٦] كَأَنَّ زَفِيرَ[٧] جَهَنَّمَ فِي أُذُنَيْهِ . قَدْ وَصَلُوا كَلَالَ[٨] لَيْلِهِمْ بِكَلَالِ نَهَارِهِمْ ، أَنْضَاءُ[٩] عِبَادَةٍ ، قَدْ أَكَلَتِ الأَرْضُ جِبَاهَهُمْ وَأَيْدِيَهُمْ وَرُكَبَهُمْ ، مُصْفَرَّةٌ أَلْوَانُهُمْ ، وَقَاحِلَةٌ أَجْسَامُهُمْ مِنْ كَثْرَةِ الصِّيَامِ وَطُولِ القِيَامِ ، مُسْتَقِلُّونَ[١٠] لِذَلِكَ فِي جَنْبِ اللهِ[١١] ، مُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ مُسْتَنْجِزُونَ[١٢] لِوَعْدِ اللهِ .

إِذَا رَأَوْا سِهَامَ العَدُوِّ فُوِّقَتْ[١٣] ، وَرِمَاحَهُ قَدْ أُشْرِعَتْ[١٤] ، وَسُيُوفَهُ قَدِ انْتُضِيَتْ[١٥] وَبَرَقَتِ الْكَتِيبَةُ ، وَرَعَدَتْ[١٦] بِصَوَاعِقِ الْمَوْتِ — اسْتَهَانُوا بِوَعِيدِ الْكَتِيبَةِ لِوَعْدِ اللهِ — فَمَضَى الشَّابُّ مِنْهُمْ قُدُمًا حَتَّى تَخْتَلِفُ رِجْلَاهُ عَلَى عُنُقِ فَرَسِهِ ، قَدْ رَمِلَتْ[١٧]

(٦) الشهقة : تردد البكاء في الصدر .
(٧) الزفير : صوت النار .
(٨) الكلال : التعب يريد أنهم دائبون على العبادة لا يستريحون .
(٩) انضاء : جمع نضو بكسر النون . وهو الهزيل المتعب .
(١٠) مستقلون : يعدونه قليلا .
(١١) جنب الله : حق الله ، والمراد طاعته .
(١٢) مستنجزون : طالبون تحقيق ما وعد الله به عباده المتقين من المغفرة والثواب .
(١٣) فوقت : ركبت في الأقواس للرمي .
(١٤) اشرعت : سددت وصوبت .
(١٥) انتضيت : استلت من أغمادها .
(١٦) برقت الكتيبة ورعدت : أعد جيش العدو عدته للهجوم والقتال .
(١٧) رملت : لطخت .

مَحَاسِنُ وَجْهِهِ بِالدِّمَاءِ ، وَعَفِّر جَبْهَتَه بِالثَّرَى ، وَأَسْرَعَ إِلَيْهِ سِبَاعُ الأَرْضِ ، وَانْحَطَّتْ عَلَيْهِ طَيْرُ السَّمَاءِ . فَكَمْ مِنْ مُقْلَةٍ[18] فِي مِنْقَارِ طَائِرٍ ، طَالَمَا بَكَى صَاحِبُهَا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ، وَكَمْ مِنْ كَفٍّ بَائَتْ[19] عَنْ مِعْصَمِهَا طَالَمَا اعْتَمَدَ عَلَيْهَا صَاحِبُهَا فِي سُجُودِهِ ، وَكَمْ مِنْ خَدٍّ عَتِيقٍ[20] وَجِيهٍ رَقِيقٍ ، قَدْ فَلَقَ بِعُمُدِ الْحَدِيدِ .

رَحْمَةُ اللهِ عَلَى تِلْكَ الأَبْدَانِ ، وَأَدْخَلَ أَرْوَاحَهَا فِي الْجِنَانِ .

التعليق

يبين لهم إقبالهم المخلص على عبادة الله سبحانه وتعالى ، وانحناءتهم الخاشعة فى إثناء الليل بتلاوة القرآن الكريم ، وتطلعهم فى شوق إلى الجنة ، وخشيتهم الوجلة من لفح النار ، ومداومتهم على العبادة فى غير رفق بأنفسهم حتى نالت الأرض من جباههم وأيديهم وركبهم من طول الركوع والسجود ، وشحبت ألوانهم وهزلت أجسامهم ، وهم مع ذلك كله يستصغرون ما يبذلون فى سبيل الله ثم يصور تهافتهم على الاستشهاد فى سبيل الله ، فإذا مازادت المعركة وسددت السهام ، وأشرعت الرماح ، واستلت السيوف من أغمادها ، لم يتراجعوا ، واقتحموا غمار المعركة غير حافلين بما يصيبهم فى سبيل الله . فقد يموت الواحد منهم على ظهر حصانه ، وهو متشبث به إلى آخر لحظة فى حياته ، وقد يخر من فوق جواده ، فيتمرغ جسده الطاهر فى التراب ، وتهوى إليه الوحوش والطير تنهش من جسمه ، فتصبح عينه فى منقار طائر ، أو تنفصل كفه فى فم وحش ، أو يحطم رأسه بعمد حديد .

---

(١٨) المقلة : العين .

(١٩) بائت : انفصلت وبعدت .

(٢٠) عتيق : كريم النسب .

من قصيدة كعب بن زهير

يوم أسلم يمدح الرسول

تمهيد : الشاعر : هو كعب بن زهير بن أبي سلمى . . من أسرة شاعرة أجادت الشعر ، وجودته ، وعرفت بالحكمة والاتزان .

أسلم ومدح الرسول بهذه القصيدة . . يقال : إنه توفى سنة ٢٤ هـ . تلقى الشعر عن أبيه مثله فى ذلك مثل أخيه « بجير » .

وكان « زهير » يعلم أبناءه وأقاربه شعر الجاهليين يحفظهم إياه حتى تظهر مواهبهم الشعرية .

وقالوا عن كعب إن والده كان يلقى عليه الشطر والبيت ويطلب منه أن يكمله .. ويعد كعب أشهر من أخويه « الحطيئة وبجير » وكلهم قد أدرك الإسلام وأسلم ؛ غير أن بجيرا كان أسبقهم إليه . .

فتح الرسول « صلى الله عليه وسلم » مكة ، ففر عدد من الشعراء واستكبر أن يدخل فى دين الله ، وأبى أن يسلم مع الأفواج التى دخلت الإسلام يومذاك أما بجير فقد أسلم ، وأما كعب فقد أبى وأخذ يهجو الرسول ، ويلوم أخاه .. وكان مما قال لأخيه :

ألا أبلغا عنى بجـــيرا رسالة فهل لك فيما قات ـ ويحك ـ هل لكا
شربت مع المأمون(١) كأسا روية فأنهلك المأمون منها وعلكا
وخالفت أسباب الهوى وتبعته على أى شىء ويب غيرك(٢) ـ دلكا
على خلق لم تلف أما ولا أبا عليه ولم تدرك عليه أخا لكا

وهكذا أخذ يلوم أخاه ، ويهجو الرسول ، ويهجو عامة الصحابة ، فتوعده الرسول ، وأباح دمه . وحرص كثير من الصحابة على قتله .

---

(١) المأمون : يريد الرسول .
(٢) ويب غيرك : هلكت هلاك غيرك .

أشفق بجير على أخيه أن يهدر دمه ، وعز عليه أن يظل كافراً فكتب إليه :

من مبلغ كعبا فهل لك فى التى ... تلوم عليها باطلا وهى أحزم
إلى الله، لا العزى ولا اللات وحده ... فتنجو إذا كان النجاء وتسلم
لدى يوم لا ينجو وليس بمفلت ... من النار إلا طاهر القلب مسلم

فشرح الله صدر كعب للإسلام ، فتنكر ، ودخل المدينة فى غبش الظلام ، وقبل أن يتنفس الصباح توجه إلى المسجد ، وانتظر حتى انتهى الرسول من صلاة الصبح فتقدم إليه وبسط يده له قائلا :

رجل جاءك يبايعك على الإسلام ، فبسط النبي يده إليه ، فكشف كعب القناع عن وجهه وقال : هذا القائم العائذ بك يا رسول الله أنا كعب بن زهير ، فتهجم عليه بعض الصحابة خاصة الأنصار ، ولكن الرسول أمنه ، فاطمأن وأنشد بين يديه هذه القصيدة :

النص

بَانَتْ[١] سُعَادُ فَقَلْبِي الْيَوْمَ مَتْبُولُ ... مُتَيَّمٌ عِنْدَهَا لَمْ يُجْزَ مَكْبُولُ
وَمَا سُعَادُ غَدَاةَ الْبَيْنِ إِذْ بَرَزَتْ ... إِلَّا أَغَنُّ[٢] غَضِيضُ الطَّرْفِ مَكْحُولُ
تَجْلُو[٣] عَوَارِضَ ذِي ظَلْمٍ إِذَا ابْتَسَمَتْ ... كَأَنَّهُ مُنْهَلٌ بِالرَّاحِ مَعْلُولُ

---

(١) بانت : فارقت ، متبول : اسقمه الحب ، مكبول : مقيد .
(٢) الأغن : ما فى صوته غنة .
(٣) تجلو : تكشف ، العوارض : الأسنان ، الظلم : ماء الأسنان وبريقها ، الراح : الخمر ، معلول : مسقى .

أَكْرِمْ بِهَا خُلَّةً[٤] لَوْ أَنَّهَا صَدَقَتْ   بِوَعْدِهَا وَلَوَ أَنَّ النُّصْحَ مَقْبُولُ
لَكِنَّهَا خُلَّةٌ قَدْ سِيطَ[٥] مِنْ دَمِهَا   فَجْعٌ وَوَلْعٌ وَإِخْلَافٌ وَتَبْدِيلُ
فَمَا تَقُومُ عَلَى حَالٍ تَكُونُ بِهَا   كَمَا تَلَوَّنُ فِي أَثْوَابِهَا الْغُولُ
وَلَا تَمَسَّكُ بِالْعَهْدِ الَّذِي زَعَمَتْ   إِلَّا كَمَا يُمْسِكُ الْمَاءَ الْغَرَابِيلُ
كَانَتْ مَوَاعِيدُ عُرْقُوبٍ[٦] لَهَا مَثَلًا   وَمَا مَوَاعِيدُهُ إِلَّا الْأَبَاطِيلُ
أَرْجُو وَآمُلُ أَنْ تَدْنُو مَوَدَّتُهَا   وَمَا إِخَالُ لَدَيْنَا مِنْكِ تَنْوِيلُ
فَلَا يَغُرَّنْكَ مَا مَنَّتْ وَمَا وَعَدَتْ   إِنَّ الْأَمَانِيَّ وَالْأَحْلَامَ تَضْلِيلُ

* * *

نُبِّئْتُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ أَوْعَدَنِي   وَالْعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ مَأْمُولُ
مَهْلًا هَدَاكَ الَّذِي أَعْطَاكَ نَافِلَةَ[٧] الْـ   ـقُرْآنِ فِيهَا مَوَاعِيظٌ وَتَفْصِيلُ
لَا تَأْخُذَنِّي بِأَقْوَالِ الْوُشَاةِ وَلَمْ   أُذْنِبْ وَلَوْ كَثُرَتْ فِيَّ الْأَقَاوِيلُ
لَقَدْ أَقُومُ مَقَامًا لَوْ يَقُومُ بِهِ   يَرَى وَيَسْمَعُ مَا قَدْ أَسْمَعُ الْفِيلُ
لَظَلَّ تَرْعَدُ مِنْ وَجْدٍ بَوَادِرُهُ[٨]   إِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ رَسُولِ اللهِ تَنْوِيلُ
مَازِلْتُ أَقْتَطِعُ الْبَيْدَاءَ مُدَّرِعًا[٩]   جُنْحَ الظَّلَامِ وَثَوْبُ اللَّيْلِ مَسْبُولُ

---

(٤) خله : صديقه ٠
(٥) سيط : خلط ، الولع : الكذب ٠
(٦) عرقوب : يضرب به المثل فى خلف الوعد ٠
(٧) نافلة القرآن : عطية القرآن ٠
(٨) بوادره : جمع بادرة : ما بين المنكب والعنق ٠
(٩) مدرعا ثوب الظلام : لبس الظلام كأنه درع ٠

حَتَّى وَضَعْتُ يَمِينِى مَا أُنَازِعُهَا ... فِى كَفِّ ذِى نَقِمَاتٍ قَوْلُهُ الْقِيلُ (١٠)
فَلَهُوَ أَخْوَفُ عِنْدِى إِذْ أُكَلِّمُهُ ... وَقِيلَ : إِنَّكَ مَنْسُوبٌ (١١) وَمَسْئُولُ
مِنْ ضَيْغَمٍ بِضَرَاءِ الأَرْضِ (١٢) مُخْدَرُهُ ... فِى بَطْنِ عَثَّرَ غِيلٌ دُونَهُ غِيلُ
يَغْدُو فَيَلْحَمُ (١٣) ضِرْغَامَيْنِ عَيْشُهُمَا ... لَحْمٌ مِنَ النَّاسِ مَعْفُورٌ خَرَادِيلُ
إِذَا يُسَاوِرُ (١٤) قِرْنًا لَا يَحِلُّ لَهُ ... أَنْ يَتْرُكَ الْقِرْنَ إِلَّا وَهُوَ مَغْلُولُ
إِنَّ الرَّسُولَ لَنُورٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ ... مُهَنَّدٌ مِنْ سُيُوفِ اللهِ مَسْلُولُ
فِى عُصْبَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ قَالَ قَائِلُهُمْ ... بِبَطْنِ مَكَّةَ لَمَّا أَسْلَمُوا زُولُوا (١٥)
زَالُوا فَمَا زَالَ أَنْكَاسٌ وَلَا كُشُفٌ (١٦) ... عِنْدَ اللِّقَاءِ وَلَا مِيلٌ مَعَازِيلُ
شُمُّ (١٧) الْعَرَانِينِ أَبْطَالٌ لَبُوسُهُمُ ... مِنْ نَسْجِ دَاوُدَ فِى الْهَيْجَا سَرَابِيلُ
لَيْسُوا مَفَارِيحَ إِنْ نَالَتْ رِمَاحُهُمُ ... قَوْمًا وَلَيْسُوا مَجَازِيعًا إِذَا نِيلُوا
لَا يَقَعُ الطَّعْنُ إِلَّا فِى نُحُورِهِمُ ... وَلَيْسَ لَهُمْ عَنْ حِيَاضِ الْمَوْتِ تَهْلِيلُ (١٨)

---

(١٠) قوله القيل : قوله الحق ·

(١١) منسوب : مسئول عن نسبك ·

(١٢) ضراء الأرض : الأرض المستوية التى تأويها السباع وبها بعض الشجر ، مخدرة : مكان اقامته ، بطن عثر : مأسدة ، الغيل : الأجمة يصف الأسد بالمنعة والتوحش ·

(١٣) يلحم : يأكل لحم ، معفور : ملقى فى التراب ، الخراديل : المقطع ·

(١٤) يساور : يواثب ، القرن : المماثل ·

(١٥) زولوا : هاجروا ·

(١٦) النكس : الضعيف ، الكشف : جمع أكشف وهو من لا ترس له والميل : جمع أميل وهو لا سيف له ، أو من لا يحسن الركوب ، والمعازيل : جمع معزول ، وهو من لا سلاح له ·

(١٧) شم العرانين : شم الأنوف : أعزه ، السرابيل : الدروع ·

(١٨) التهليل : الجبن ، والفرار ·

التعليق

يدير كعب قصيدته على عدة محاور تناولت هذه الأبيات ثلاثة منها :

المحور الأول (١ — ١٠) : وقد أتى فى مطلع القصيدة سائراً على النهج الذى الذى انتهجته عامة الشعراء فى العصر الجاهلى ، وعلى رأسهم أبوه زهير ، وصار تقليداً فى أدبنا العربى ، افتتاح القصيدة بالغزل ، أو التشبيب : وهو أنواع :

[ا] ذكر صفات المحب من الشغف والنحول ومن الحزن والأرق :

بانت سعاد فقلبي اليـــوم متبولُ متيم عنـــدها لم يجز مكبول

[ب] ذكر صفات المحب الحسية والخلقية والنفسية كرشاقة القد وحور العين ، وكالحياء والوقار، ونحو ذلك من الصفات الحسية والمعنوية، ومنه قول كعب:

وما سعاد غـــداة البين . . . البيت

[حـ] ومنه ما يربط بين المحب والمحبـوب كالصد والهجر ، والوصـل واخلاف الوعد ، وإلى شيء من ذلك يشير كعب بقوله فى الأبيات (٤ — ٨)

أكـرم بهـا خلة لوأنها صدقت بوعدها . . . . الأبيـــات

ومن هذا المحور يتراءى لنا إفادة كعب من والده زهير فيأخذ معنى قوله :

وفارقتك برهن لا فـكاك له يوم الوداع فأمسى الرهن قد غلقا(١)

فى قوله : بانت سعاد .

كما يفيد من الأمثال الشائعة فى بيئته . من ذلك قوله :

« كانت مواعيد عرقوب لها مثلا »

وعرقوب اسم رجل مشهور بإخلاف الوعد ، حتى ضربوا به المثل فقالوا « أخلف من عرقوب » وتداولته العرب فى أشعارهم قال شاعرهم :

وعدت كأن الخلف فيك سجية مواعيد عرقوب أخاه بيـــثرب

(١) غلق الرهن : لم ينفك أبدا .

وذلك لأنه وعد أخاه بيثرب ثمر نخلة وقال له : ائتنى إذا أطلع، فلما أطلع قال : إذا أبلح ، فلما أبلح قال : إذا أزهى فلما أزهى قال : إذا أرطب . فلما أرطب قال : إذا صار تمراً ، فلما أتمر جزه ليلا ولم يعطه شيئاً .

هذا الغزل الذى جاء بين يدى القصيدة متبعاً سنة الشعراء قبله مثيراً فى نفسه انفعال الشعر ، جاذباً به انتباه سامعيه . هذا الغزل تتراءى فيه سمات فنية نعد منها :

— إعجابه الشديد بمن أحب ، وافتتانه حسياً ومعنوياً .

— تلهفه على رضاها ، وخوفه من تنكرها . وتهالكه على مودته .

— تحذيره من الخضوع لها ، والاستسلام لأمانيها . .

فمن سعاد هذه ؟ وكيف يصفها على مرأى ومشهد من الصحابة ، وفى مواجهة الرسول ؟

إن الصحابة لم يحتجوا . والرسول قد طرب لقصيده ، ولم يأخذ عليه أحد هذا الإعجاب . ولا ذلك الطرب .

وهذا تقدير للفن الأدبى من الرسول ، ومن صحابته ، وهذه لباقة وبراعة من كعب . فإن هذه المعانى التى يتناولها فى محبوبته هى نفس المعانى أو نفس العواطف التى تعتمل فى نفسه إزاء رسول الله وإشفاقه من غضبه ، وتمنيه وصله ، وعفوه ، ومن قبل ذلك حبه للرسول واستسلامه له . . ولكن هل يفلت من وعيد الصحابة إن قلبه يدفع إلى لسانه .

« أرجو وآمل أن تدنو مودتها . . . » .

وهواجسه تثير أحزانه فيقول : « فلا يغرنك ما منت وما وعدت . . . » .

المحور الثانى : (١١ — ٢٢) وهو العنصر الأساسى فى القصيدة والهدف الذى من أجله أنشدت ، إنه يستعطف فيه الرسول ، ويرجو عفوه ويستشفع إليه بالكتاب الكريم ويهيب به ألا يستمع لواش . ويتقرب إليه بما أصابه من خوف وفزع عندما علم بتهديد الرسول إياه ، إنه فزع أجل من أن يحتمل ، وخوف دونه همة كعب بل إنه الآن ليقف بين يديه (عليه الصلاة والسلام) موقفاً لو وقفه فيل لظل

ترعد من وجد بوادره فكيف بكعب ، وهو الإنسان الرقيق القلب المرهف الشعور ؟!!

إنه مستسلم ولكن فى إشفاق . ماثل أمامه ولكن فى فزع ، إنه من رسول الله كالإنسان أمام أسد كاسر أو ضرغام هائج أو وحش فاتك ، هذا وجه من الشعور أما الوجه الآخر فيمثله قوله : « العفو عند رسول الله مأمول » ، « مهلا هداك الذى أعطاك نافلة القرآن » وفيها قوله تعالى : « خذ العفو وأمر بالعرف » وأخيراً يركز هذين الوجهين فى صورة نوروسيف ، وقد رأى النور فاهتدى به بعد ضلال كما يهتدى الضال بنار القرى . ورأى السيف فرجا العفو والصفح .

إن الرسول لنـــور يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول

ولكن مابال كعب ، وهو العربى الأصيل — يجنح إلى المبالغة والتهويل فيتصور الرسول أشد رهبة وأعنف شكيمة يرعد أمامه الفيل ،وهو أسد كاسر ينال ، ولا ينال منه ويفتك ولا يفتك به ؟!!

أكان كعب صادقاً فى ذلك أم كان معرضاً بعديد من أقرانه العرب الذين توعدوه فاستهان بوعيدهم بطريقته الخاصة ؟!

سواء كان هذا أم ذاك فإن لكل اتجاه ما يؤيده من القصيدة نفسها . فإن كعباً لم يمس الرسول ، بل احتفل به وبكتابه الذى جاء به من عند الله وبمهابته .

وفى الوقت نفسه تحامل على الأنصار وهجاهم صراحة فى أبيات لم نشأ أن تذكرها . وحفظ فى الوقت نفسه يد المهاجرين عليه فقد كان لهم دور فى عفو الرسول عنه ، فذكر لهم هذه العارفة فى الأبيات التى تضمنها المحور الثالث !!

المحور الثالث : (٢٣ ، ٢٧) أثنى على المهاجرين فذكر معنى كثيراً ما يخفى على المؤرخين فيظنون أن الرسول وأصحابه تركوا مكة رهبة من قريش ، أو فراراً من العذاب ، ولم يعلموا الحقيقة التى أشار إليها كعب ، وهو المعاصر لهذا الحدث الكبير « الهجرة من مكة إلى المدينة » .

— لقد كان استجابة للرسول فلولم يقل لهم هاجروا ماهاجروا ، وإنهم إذا هاجروا كانوا الأقوياء ولم يكونوا الضعفاء .

زالوا فا زال انكاس ولا كشف عند اللقـــاء ولا ميل معازيل

وكانوا المعتدين بأنفسهم وبطولتهم ؛ وعدتهم وعتادهم .

شم العـــرانين أبطال لبوسهم من نسج داود فى الهيجا سرابيل

وهم الأعزاء على أى حال لايغرهم النصر ولاتذلهم الهزيمة .

لبسوا مفاريح إن نالت رماحهم قوماً وليســوا مجازيعاً إذا نيـلوا

* * *

وهكذا يقدم كعب لحديثه بين يدى الرسول وأصحابه بمايجذب انتباههم ثم يراعى فى كلامه مقتضى الحال فيذكر من المقـال ما يتسق مع المقام فيخص كل فريق استمع إليه بكلمة يحدثه فيها فيستولى على أذهان السامعين جميعـاً ، دون أن يحتفل بفريق دون فريق .

وكأننا بكعب ، وقد انتهى من قصيدة قد انفتح له قلب الرسول فدخل إليه،وكان فى الوقت نفسه موضع اهتمام من الصحابة جميعاً ، المهاجرين منهم والأنصار .

أما الرسول فقـد خلع عليه بردته ، وقد اشتراها معاوية من أبناء كعب بعشرين ألف درهم ؛ وكان يلبسها الخلفاء فى العيدين ، ومن أجـل ذلك لقبت هذه القصيدة « بالبردة » .

أما المهاجرون من قريش فقـد أعجبوا به وسألوا الرسول أن يعفو عنه ولـكنهم فى الوقت نفسه لاموه على هجاء الأنصـار وقالوا له : « لم تمدحنـا إذ هجوتهم » أما الأنصـار فقد كانوا أكرم وأنبـل . لقد صفحوا عنه وفرحوا بإسلامه فذكرهم كعب بالثناء فقال :

من سره كرم الحيـــاة فلا يزل فى مقنب(١) من صالحى الأنصار

ورثوا السيادة كابرا عن كابر إن الـكرام همو بنو الأخيار (٥)

---

(١) المقنب : جماعة الخيل والفرسان .

(*) دكتور سعد شلبى

شجاعة وحماسة

لقطرى بن الفجاءة

تمهيد : قطرى بن الفجاءة المازنى شاعر وخطيب من زعماء الخوارج وقد خاض حروباً طويلة مع الأمويين حتى قتل بطبرستان سنة ٧٩ هـ . وفى النص التالى يعرض لنا صورة حية قوية تفيض بالشجاعة والحماسة .

النصّ

أَقُولُ لَهَا[١] وَقَدْ طَارَتْ شَعَاعًا ... مِنَ الأَبْطَالِ وَيْحَكِ لَنْ تُرَاعِي
فَإِنَّكِ لَوْ سَأَلْتِ بَقَاءَ يَوْمٍ ... عَلَى الأَجَلِ الَّذِي لَكِ لَمْ تُطَاعِي
فَصَبْرًا فِي مَجَالِ الْمَوْتِ صَبْرًا ... فَمَا نَيْلُ الْخُلُودِ بِمُسْتَطَاعِ
وَلَا ثَوْبُ الْبَقَاءِ بِثَوْبِ عِزٍّ ... فَيُطْوَى عَنْ أَخِي الْخَنَعِ الْيَرَاعِ[٢]
سَبِيلُ الْمَوْتِ غَايَةُ كُلِّ حَيٍّ ... فَدَاعِيهِ لِأَهْلِ الأَرْضِ دَاعِ
وَمَنْ لَا يُعْتَبَطْ[٣] يَسْأَمْ وَيَهْرَمْ ... وَتُسْلِمْهُ الْمَنُونُ إِلَى انْقِطَاعِ
وَمَا لِلْمَرْءِ خَيْرٌ فِي حَيَاةٍ ... إِذَا مَا عُدَّ مِنْ سَقَطِ[٤] الْمَتَاعِ

---

(١) لها : أى لنفسه ، طارت شعاعا : تبددت من الخوف ، تراعى : تفزعى .
(٢) الخنع : بفتح الخاء اللين ، اليراع : الجبان .
(٣) يعتبط : يموت شابا .
(٤) سقط المتاع : شىء تافه .

من صور الوفاء الأخوى

لمتمم بن نويرة

تمهيد : صورة لوفاء أخ لأخيه،وكيف تفجر فيه أنهار الحزن باكية شاحبة من قلب « متمم بن نويرة » لتسيل شعراً فاجعاً على أخيه « مالك بن نويرة » ولم يعرف عن « متمم » قول الشعر قبل مقتل مالك (فيأيها الحزن المقدس كيف انبجست الشعر من حريقك اللاهف هذه الآلام التى تجسدت أبياتاً حزينة تبكى مالكا) وقدكان سيداً نبيلا وزعيا مهاباً .

النص

لَعَمْرِى ، وَمَا دَهْرِى بِتَأْبِينِ مَالِكٍ ... وَلا جَزَعٍ مِمَّا أَصَابَ فَأَوْجَعَا(١)

لَبِيبٌ أَعانَ اللبَّ مِنْهُ سَمَاحَةٌ

خَصِيبٌ إِذَا مارَاكِبُ الجَدْبِ أَوْضَعا(٢)

أَغَرُّ كَنَصْلِ السَّيْفِ يَهْتَزُّ لِلنَّدَى ... إِذَالَمْ يَجِدْ عِنْدَامْرِىءِالسُّوءِمَطْمَعَا

وَما كانَ وَقَّافاً إِذا الخَيْلُ أَحْجَمَتْ ... أَخَاالحَرْبِ صِدْقًافِى اللِّقَاءِسَمَيْدَعا(٣)

وَما كانَ وَقَّافًا إِذا الخَيْلِ أَحْجَمَتْ ... وَلاطَالِباً مِنْ خَشْيَةِ المَوْتِ مفزعا

أَبَى الصَّبْر آياتٌ أَرَاهَا وَأَنِّى ... أَرَى كُلَّ حَبْلٍ دونَ حَبْلِكَ أَقْطَعَا

وَأَنِّى مَتَى مَا أَدْعُ بِاسْمِكَ لاتُجِبْ ... وَكُنْتَ جَدِيراً أَنْ تُجِيبَ وَتَسْمَعا

---

(١) أى ان دهرى غير معنى برثاء أخى « مالك » ولا هو بمشفق على لما أصابنى .

(٢) أوضع : أسرع فى السير .

(٣) السميدع : السيد العظيم .

وَعِشْنَا بِخَيْرٍ فِي الْحَيَاةِ وَقَبْلَنَا ... أَصَابَ الْمَنَايَا رَهْطَ كِسْرَى وَتُبَّعَا
وَكُنَّا كَنَدْمَانَيْ جَذِيمَةَ حِقْبَةً مِنَ ... الدَّهْرِ حَتَّى قِيلَ لَنْ يَتَصَدَّعَا[٤]
فَلَمَّا تَفَرَّقْنَا كَأَنِّي وَمَالِكاً ... لِطُولِ اجْتِمَاعٍ لَمْ نَبِتْ لَيْلَةً مَعَا
فَإِنْ تَكُنِ الأَيَّامُ فَرَّقْنَ بَيْنَنَا ... فَقَدْ بَانَ مَحْمُوداً أَخِي يَوْمَ وَدَّعَا
سَقَى اللهُ أَرْضاً حَلَّهَا قَبْرُ مَالِكٍ ... رِهَامَ الْغَوَادِي الْمُزْجِيَاتِ فَأَمْرَعَا[٥]
فَوَاللهِ مَا أَسْقِي الْبِلَادَ لِحُبِّهَا ... وَلَكِنَّنِي أَسْقِي الْحَبِيبَ الْمُوَدَّعَا
تَحِيَّتَهُ مِنِّي ، وَإِنْ كَانَ نَائِياً ... وَأَمْسَى تُرَاباً فَوْقَهُ الأَرْضُ بَلْقَعَا[٦]
تَقُولُ ابْنَةُ الْعَمْرِيِّ مَالَكَ بَعْدَمَا ... أَرَاكَ قَدِيماً نَاعِمَ الْبَالِ أَفْرَعَا[٧]
فَقُلْتُ لَهَا : طُولُ الأَسَى إِذْ سَأَلْتِنِي ... وَلَوْعَةُ حُزْنٍ تَتْرُكُ الْوَجْهَ أَسْفَعَا[٨]
وَفَقْدُ بَنِي أُمٍّ تَوَلَّوْا وَلَمْ أَكُنْ ... خِلَافَهُمُ أَنْ أَسْتَكِينَ فَأَضْرَعَا[٩]
قَعِيدَكِ أَلَّا تُسْمِعِينِي مَلَامَةً ... وَلَا تَنْكَئِي جُرْحَ الْفُؤَادِ فَأَوْجَعَا
وَحَسْبُكِ أَنِّي قَدْ جَهِدْتُ فَلَمْ أَجِدْ ... بِكَفِّيَ عَنْهُمْ لِلْمَنِيَّةِ مَدْفَعَا
فَلَا فَرِحاً إِنْ كُنْتُ يَوْماً بِغِبْطَةٍ ... وَلَا جَزِعاً إِنْ نَابَ دَهْرٌ فَأَوْجَعَا

---

(٤) جذيمة : ملك كان له نديمان ظلا يلازمانه حتى فرق الموت بينهم ٠
(٥) الرهام : المطر ، الغوادى : الأمطار النازلة صباحا ، المزجيات : أى ساقها ودفعها ٠
(٦) البلقع : الأرض القفر ٠
(٧) ابنة العمرى : زوجته ٠
(٨) أسفعا : سواد يضرب الى حمرة ٠
(٩) خلافهم : بعدهم ٠

تعليق

إن عاطفة الأخوة التى تغذيها مشاعر حب ومودة بين « متمم » وأخيه مالك ، تتجلى فى قدرة « متمم » على تجسيد الفجيعة التى أصابته والتى تتخذ فى القصيدة الصور الآتية :

١ — تحسر وألم للدهر الذى يصيب بمصائبه ولا يأسى للمتوجعين منها .

٢ — تذكارات موجعة للشقيق العزيز والسيد النبيل والتى تتناوح فى ذاكرة « متمم » وهو يعدد صفاته الكريمة ، فهو سمح النفس جواد إذا ما ركب إليه محتاج مجد ، وجد عند « مالك » العطاء والخير ، وتتهمر صور ذلك البطل الكريم فإذا هو أغر « كنصل السيف » كناية عن الأصل العريق وتتشابك معها هذه الصورة التشبيهية له بأنه كنصل السيف حدة ومضاء ونقاء ، وأنه يهتز للندى والكرم حين يبخل الكرماء وفى مواطن اليأس والقتال يتقدم إذا وقف الشجعان لا يفزعه موت ولا يرهبه حتف .

٣ — ثم يبين « متمم » عن ألمه المضاعف لهذا القدر الذى لا مهرب منه حيث لا يجدى إزاءه صبر أو تحمل ،أبى الصبر آيات أراها .فينادى عليه عله يرد ضراعة أخ محطوم الفؤاد .

أخى متى ما أدعُ باسمك لا تجب   وكنت جديراً أن تجيب وتسمعا

٤ — ويحاول التأسى فمن قبل « أصاب المنايا رهط كسرى وتبعا » ومن قبل تفرق ندمانا جذيمة ، ولكن هل يصدق القلب أن الشقيقين الحبيبين لن يلتقيا وهل صحيح أنهما بعد اجتماع لا ينفصم قد تفرقا إلى غير لقاء .

« فلما تفرقنا كأنى ومالكا   لطول اجتماع لم نبت ليلة معاً »

٥ — لم يبق إلا الرضاء الأليم ، فليسق الله أرضك يامالك إتحية منى ومحبة لك ولا أدعو بالسقيا الأرض إلا لأنك ثاو بها .

فوالله ما أسقى البلاد لحبها   ولكننى أسقى الحبيب المودعا

٥ — وتراه زوجه « ابنة العمرى » كالطلل الذاوى نحولا وحزناً وأسى وتشهق به والهة « مالك بعد ما أراك قديماً ناعم البال أفرعا » ؟

ألا تدرين يا بنة العمرى : لقد فقد الأخ والشقيق والسيد العظيم ففقدت بفقده كل شيء .

فقلت لها . طول الأسى إذ سألتنى   ولوعة حزن تترك الوجه أسعفا

ومن قبل ، مالك ، فقدت أخوة لى وإنى على عهد الوفاء مقيم ومع هذه المصائب المتوالية فلن أضعف للخطوب ولن أستكين .

فأناشدك الله لاملامة منك أسمعها ولا تنكئى جراح القلب فتزيدى الجراح جراحا

فعيدك ألا تسمعين ملامة   ولا تنكئى جرح الفؤاد فأوجعا

وحسبك أنى جاهدت حتى أدفع الموت عنهم. فما استطعت إلى ذلك سبيلا ولم يبق إلا أن يتجمد القلب من كثرة ما أراق من دم ويتحجر الشعور من طول ما عانى وتعذب حتى أصبح كل شيء سواء : الحزن والفرح الضحك والبكاء .

فلا فرحاً إن كنت يوماً بغبطة   ولا جزعا إن ناب دهر فأوجعا

قصيدة وفاء وألم تخلو من تلك الحيل البلاغية التى عرفناها باسم الاستعارة أو أو التشبيه أو غيره لتخلى المكان لعاطفة صادقة تنثال بعفوية صادقة موجعة ولعلها فى فى رأينا أبلغ وأشد تأثيرا .

من صور الشهامة العربية

للمقنع الكندى

تمهيد : عندما تكون النفس مفطورة على النبل فإن هذه النفس تجعل وجودها لا يتحقق إلا بأن تعطى ولا تأخذ ، تمنح ولا تمنع هكذا كانت نفس المقنع الكندى وهو من شعراء الدولة الأموية .

النص

يُعَاتِبُنِي فِي الدَّيْنِ قَوْمِي وَإِنَّمَا ... دُيُونِي فِي أَشْيَاءَ تُكْسِبُهُمْ حَمْدَا

أُسُدُّ بِهِ مَا قَدْ أَخَلُّوا وَضَيَّعُوا ... ثُغُورَ حُقُوقٍ مَا أَطَاقُوا لَهَا سَدَّا (١)

وَفِي جَفْنَةٍ مَا يُغْلَقُ الْبَابُ دُونَهَا ... مُكَلَّلَةٍ لَحْمًا مُدَفَّقَةٍ ثَرْدَا (٢)

وَفِي فَرَسٍ نَهْدٍ عَتِيقٍ جَعَلْتُهُ ... حِجَابًا لِبَيْتِي ثُمَّ أَخْدَمْتُهُ عَبْدَا (٣)

وَإِنَّ الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَ بَنِي أَبِي ... وَبَيْنَ بَنِي عَمِّي لَمُخْتَلِفٌ جِدًّا

فَإِنْ أَكَلُوا لَحْمِي وَفَرْتُ لُحُومَهُمْ ... وَإِنْ هَدَمُوا مَجْدِي بَنَيْتُ لَهُمْ مَجْدَا

وَإِنْ ضَيَّعُوا غَيْبِي حَفِظْتُ غُيُوبَهُمْ ... وَإِنْ هُمْ هَوُوا غَيِّي هَوَيْتُ لَهُمْ رُشْدَا (٤)

وَإِنْ زَجَرُوا طَيْرًا بِنَحْسٍ تَمُرُّ بِي ... زَجَرْتُ لَهُمْ طَيْرًا تَمُرُّ بِهِمْ سَعْدَا

---

(١) أخلوا ثغور حقوق : يقصد بعض قومه الذين يخلوا بحقوق القبيلة ، فاستدان ليقضيها .

(٢) جفنة : وعاء واسع ، ثرد : خبز .

(٣) نهد : عال ، عتيق : أصيل .

(٤) ضيعوا غيبى : ذمونى ، هووا : أحبوا .

وَلِيَنْسُوا إلى نَصْرِي سِرَاعاً وَإِنْ هُمُ ... دَعَونِي إلى نَصْرٍ أَتَيْتُهُمْ شَدّاً
وَلا أَحمِلُ الحِقْدَ القَدِيمَ عَلَيهِمُ ... وَلَيسَ رَئِيسُ القَومِ مَنْ يَحمِلُ الحِقْدا
لَهُمْ جُلُّ مَالِي إِنْ تَتَابَعَ لِي غِنًى ... وَإِنْ قَلَّ مَالِي لَمْ أُكَلِّفْهُم رِفْدا[٥]
وَإِنِّي لَعَبْدُ الضَّيْفِ ما دامَ نازِلاً ... وَما شِيمَةٌ لِي غَيرُها تُشْبِهُ العَبْدا

التعليق

نشأ الشاعر فى بيت كرم حتى أتلف ماله إطعاماً لجائع ودفاعا عن مظلوم وحماية لقومه ورعاية لقبيلته . ولكن أبناء عمه ــ وقد فقد ماله ــ يعيرونه بفقره ، وينسون أنه افتقر ليغنوا وأنه استدان لأنهم بخلوا عن حق الجائع والمحتاج فكانت أبياته التى يعتزج فيه العتب بالألم .

لقد استدان « فى أشياء تكسبهم حمداً » كما يقول ، ثم يذكر العاتبين بأن هذا الدين يسد به ما أخلوا وضيعوا . ونفسه تأبى أن يضيع حق أو يهان كريم .

أسد به ما قد أخلوا وضيعوا ... ثغور حقوق ما أطاقوا لها سدا

وتضىء لنا ذاكرة الشاعر على حروف كلماته ما صنعه وما يصنعه مما يود صنعة كل إنسان خير أصيل .

الطعام يملأ البيت حتى لايستطاع إغلاق الباب لكثرته واللحم والخبز لكل محتاج وجائع « مكللة لحماً مدفقة ثرداً » .

وهو حامى القبيلة يكلف نفسه عبء هذه الحماية من خيل أصيلة ومن « فرس نهد عتيق » .

ومع ذلك فهو مسرف فى بذل روحه وهم يسرفون فى ذمه ولومه فكان بيته الذى ينضح بالألم وبهذه الجملة المؤكدة فى أوله .

وإن الذى بينى وبين بنى أبى ... وبين بنى عمى لمختلف جــداً

---

(٥) الرفد : العطاء .

ثم تتوالى تفصيلات لهذا الاختلاف المؤلم بين نفس مطبوعة على الخير موقوفة على البذل أو العطاء وبين هؤلاء الذين أعطاهم فشحوا ورعاهم فنقموا ومع ذلك فإن أكلوا لحمه وفر لحومهم وإن هدموا مجده « بنيت لهم مجداً » وإن ذموه واغتابوه فسيظل نقى النفس يحفظ غيبهم فالوردة لاتهرب من عطرها والبحر لايفر من مائه فإن سعدوا بنحسه فسوف يرجو لهم السعد والأمن .

وهم خاذلون لاينصرون أحداً ولا ينصرونه كذلك إلا أنه يؤكد « إن هم دعونى إلى نصر أتيتهم شداً ».

نعم أصالة وشهامة تترفع عن الحقد القديم فهو سيد وزعيم « وليس رئيس القوم من يحمل الحقدا » .

وما دام لى مال فهو لهم فهم أهلى وعشيرتى ، وإن قل مالى لم أكلفهم رفدا »

ومع شموخ هذه النفس وكبريائها وعزتها فإنها تتواضع حتى تصير فى منزلة العبد إذا كان ضيف يتلمس زادا أو يتطلب معروفاً ، وفى غير ذلك فإنها شامخة أبية :

وإنى لعبد الضيف مادام نازلا وما شيمة لى غيرها تشبه العبدا

صورة وضيئة للعربى الأصيل فى أخلاقه ومثله .

من أشعار مالك بن الريب التميمى

تمهيد : عاش مالك فى القرن الهجرى الأول . وكان فيما ذكر — من أجمل العرب جمالا ، وأبينهم بياناً . وكان فى أول أمره لصاً فاتكاً غوياً . فلما علم بأمره سعيد بن عفان أخو الخليفة عثمان بن عفان — وكان والياً على خراسان من قبل معاوية — دعاه وقال له : ويحك يامالك ، ما الذى يدعوك إلى مايبلغنى عنك من العداء وقطع الطريق ؟ قال أصلح الله الأمير ، العجز عن مكافأة الإخوان . قال : فإن أنا أغنيتك واستصحبتك أتكف عما تفعل وتتبعنى ؟ قال : نعم أصلح الله الأمير ، أكف كأحسن ما كف أحد . فاستصحبه ، وانتظم فى جيشه وأجرى عليه خمسمائة دينار فى كل شهر وبقى معه حتى مات بخراسان .

وقيل فى سبب موته أنه طعن فسقط وهو بآخر رمق .

وقيل : كان ببعض الطريق فى خراسان . فأراد أن يلبس خفه فإذا بأفعى فى داخلها فلسعته ، فلما أحس بالموت استلقى على قفاه ثم قال هذه القصيدة التى يرثى فيها نفسه ويذكر غربته ومرضه .

النص

أَلَا لَيْتَ شِعْرِى هَلْ أَبِيتَنَّ لَيْلَةً
بِجَنْبِ الْغَضَى(١) أُزْجِي الْقِلَاصَ(٢) النَّوَاجِيَا(٣)
فَلَيْتَ الْغَضَى لم يَقْطَعِ الرَّكْبُ عَرْضَهُ
وَلَيْتَ الْغَضَى مَاشَى الرِّكَابَ لَيَالِيَا

---

(١) جمع غضاة وهى شجرة من نوع الأثل ، خشبه صلب .
(٢) جمع قلوص وهى الناقة .
(٣) جمع ناجية من نجت الناقة أى أسرعت .

لَقَدْ كانَ فِي أهْلِ الْغَضَى لَوْ دَنا الْغَضَى
مَزارٌ وَلكِنَّ الْغَضَى لَيْسَ دَانِيا

أَلَمْ تَرَنِي بِعْتُ الضلالةَ بِالْهُدَى وَأَصْبَحْتُ فِي جَيْشِ ابْنِ عَفَّانَ غَازِيا

***

تَذَكَّرْتُ مَنْ يَبْكِي عَلَيَّ فَلَمْ أَجِدْ
سِوَى السَّيْفِ وَالرُّمْحِ الرُّدَيْنِي (٤) بَاكِيا

وَأَشْقَرَ مَحْبُوكاً (٥) يَجُرُّ عِنانَهُ إلى الْمَاءِ لَمْ يَتْرُكْ لَهُ الموتُ سَاقِيا

وَلكِنْ بِأَكْنافِ السُّمَيْنَةِ (٦) نِسْوَةٌ
عَزِيزٌ عَلَيْهِنَّ الْعَشِيَّةَ مَا بِيا

صَرِيعٌ عَلَى أَيْدِي الرِّجَالِ بِقَفْرَةٍ يُسَوُّونَ لَحْدِي حَيْثُ حُمَّ قَضَائِيا

وَلَمَّا تَرَاءَتْ عِنْدَ مَرْوٍ (٧) مَنِيَّتِي وَخَلَّ (٨) بِهَا جِسْمِي وَحَانَتْ وَفَاتِيا

أَقُولُ لأَصْحَابِي ارْفَعُونِي فَإِنَّهُ يَقَرُّ بِعَيْنِي إِنْ سُهَيْلٌ (٩) بَدَا لِيا

فَيَا صَاحِبَيْ رَحْلِي دَنَا الْمَوْتُ فَانْزِلا بِرَابِيَةٍ إِنِّي مُقِيمٌ لَيَالِيا

أَقِيمَا عَلَيَّ الْيَوْمَ أَوْ بَعْضَ لَيْلَةٍ وَلا تُعْجِلانِي قَدْ تَبَيَّنَ شَانِيا

---

(٤) نسبة الى امرأة تدعى ردين كانت تجيد صناعة الرمح .
(٥) محكم الخلق .
(٦) اسم موضع .
(٧) مدينة بوسط آسيا (خراسان) .
(٨) اختل وهزل .
(٩) نجم يظهر فى بلاد العرب . والمعنى ان سهيلا لا يرى بخراسان ولكن يرى فى بلد الشاعر ، فاذا رفع استطاع رؤيته .

وَقُومَا إِذَا مَا اسْتُلَّ رُوحِي فَهَيِّئَا ... لِيَ السِّدْرَ(١٠) وَالأَكْفَانَ عِنْدَ فَنَائِيَا
وَخُطَّا بِأَطْرَافِ الأَسِنَّةِ مَضْجَعِي ... وَرُدَّا عَلَى عَيْنَيَّ فَضْلَ رِدَائِيَا
وَلَا تَحْسِدَانِي بَارَكَ اللهُ فِيكُمَا ... مِنَ الأَرْضِ ذَاتِ العَرْضِ أَنْ تُوسِعَا لِيَا
خُذَانِي فَجُرَّانِي بِثَوْبِي إِلَيْكُمَا ... فَقَدْ كُنْتُ قَبْلَ اليَوْمِ صَعْبًا قِيَادِيَا
وَقَدْ كُنْتُ عَطَّافًا إِذَا الخَيْلُ أَدْبَرَتْ ... سَرِيعًا لَدَى الهَيْجَا إِلَى مَنْ دَعَانِيَا
وَقَدْ كُنْتُ صَبَّارًا عَلَى القِرْنِ فِي الوَغَى ... وَعَنْ شَتْمِيَ ابْنَ العَمِّ وَالجَارَ وَانِيَا
فَطَوْرًا تَرَانِي فِي ظِلَالٍ(١١) وَنَعْمَةٍ ... وَطَوْرًا تَرَانِي وَالعِتَاقُ(١٢) رِكَابِيَا
وَيَوْمًا تَرَانِي فِي رَحًى(١٣) مُسْتَدِيرَةٍ ... تُخَرِّقُ أَطْرَافُ الرِّمَاحِ ثِيَابِيَا
وَقُومَا عَلَى بِئْرِ السُّمَيْنَةِ أَسْمِعَا ... بِهَا الغُرَّ(١٤) وَالبِيضَ الحِسَانَ الرَّوَانِيَا(١٥)
بِأَنَّكُمَا خَلَّفْتُمَانِي بِقَفْرَةٍ ... تَهِيلُ عَلَيَّ الرِّيحُ فِيهَا السَّوَافِيَا(١٦)
وَلَا تَنْسَيَا عَهْدِي خَلِيلَيَّ بَعْدَمَا ... تَقَطَّعُ أَوْصَالِي وَتَبْلَى عِظَامِيَا

---

(١٠) السدر : شجر النبق .

(١١) جمع طل وهو الندى ، والمراد النعيم .

(١٢) جمع عتيق وهو الحصان الأصيل .

(١٣) المقصود موضع الحرب ، ووصفها بأنها مستديرة وذلك حيث يستدير الناس للقتال .

(١٤) البيض .

(١٥) الرنو : النظر الدائم ، الرواني : جمع رانية وهي الناظرة .

(١٦) جمع سائفة وهي الرملة الدقيقة .

وَلَنْ يَعْدَمَ الْوَالُونَ بَثًّا[١٧] يُصِيبُهُمْ ... وَلَنْ يَعْدَمَ الْمِيرَاثَ مِنِّي الْمَوَالِيَا

يَقُولُونَ لَا تَبْعَدْ وَهُمْ يَدْفِنُونَنِي ... وَأَيْنَ مَكَانُ الْبُعْدِ إِلَّا مَكَانِيَا

غَدَاةَ غَدٍ يَا لَهْفَ نَفْسِي عَلَى غَدٍ ... إِذَا أَدْلَجُوا[١٨] عَنِّي وَأَصْبَحْتُ ثَاوِيَا

وَأَصْبَحَ مَالِي مِنْ طَرِيفٍ وَتَالِدٍ[١٩] ... لِغَيْرِي وَكَانَ الْمَالُ بِالْأَمْسِ مَالِيَا

فَيَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ بَكَتْ أُمُّ مَالِكٍ ... كَمَا كُنْتُ لَوْ عَالَوْا نَعِيَّكِ[٢٠] بَاكِيَا

إِذَا مِتُّ فَاعْتَادِي الْقُبُورَ وَسَلِّمِي
عَلَى الرَّمْسِ أُسْقِيتِ السَّحَابَ الْغَوَادِيَا[٢١]

عَلَى جَدَثٍ قَدْ جَرَّتِ الرِّيحُ فَوْقَهُ ... تُرَابًا كَسَحْقِ الْمَرْنَبَانِيِّ[٢٢] هَابِيَا

رَهِينَةَ[٢٣] أَحْجَارٍ وَتُرْبٍ تَضَمَّنَتْ ... قَرَارَاتُهَا[٢٤] مِنِّي الْعِظَامَ الْبَوَالِيَا

فَيَا صَاحِبًا إِمَّا عَرَضْتَ فَبَلِّغَنْ ... بَنِي مَازِنٍ وَالرَّيْبِ أَلَّا تَلَاقِيَا

وَعَرِّ قَلُوصِي فِي الرِّكَابِ فَإِنَّهَا ... سَتَفْلِقُ أَكْبَادًا وَتُبْكِي بَوَاكِيَا

***

---

(١٧) البث : أشد الحزن .

(١٨) الادلاج : السير من أول الليل .

(١٩) الطريف المال المستحدث ، والتالد العتيق الموروث .

(٢٠) عالى الشيء : رفعه .

(٢١) جمع غادية وهى السحابة تمطر فى الغداة .

(٢٢) المرنبانى : كساء من خز أو من وبر الابل .

(٢٣) ثابتة ودائمة ومقيمة .

(٢٤) القرارة : بطن الوادى حيث يستقر الماء فضربه مثلا للقبر .

غَرِيبٌ بَعِيدُ الدَّارِ ثَاوٍ بِقَفْرَةٍ   يَدَ[٢٥] الدَّهْرِ مَعْرُوفًا بِأَلَّا تَدَانِيَا
أُقَلِّبُ طَرْفِي حَوْلَ رَحْلِي[٢٦] فَلَا أَرَى
بِهِ مِنْ عُيُونِ الْمُؤْنِسَاتِ مُرَاعِيَا
وَبِالرَّمْلِ مِنَّا نِسْوَةٌ لَوْ شَهِدْنَنِي   بَكَيْنَ وَفَدَّيْنَ الطَّبِيبَ الْمُدَاوِيَا
وَمَا كَانَ عَهْدُ الرَّمْلِ عِنْدِي وَأَهْلِهِ   ذَمِيمًا وَلَا وَدَّعْتُ بِالرَّمْلِ قَالِيَا
فَمِنْهُنَّ أُمِّي وَابْنَتَايَ وَخَالَتِي   وَبَاكِيَةٌ أُخْرَى تَهِيجُ الْبَوَاكِيَا

التعليق

تعتبر هذه القصيدة لوناً فذاً من ألوان الرثاء فى الشعر العربى : فهى بوزنها ، ورويها ، وجرسها تكاد تهز مشاعرنا هزاً .

وزاد من روعتها أن قائلها بدأ حياته فاتكاً ، ضالا ، قاطع طريق ، ثم ترك الغواية والتحق جندياً بالجيش العربى الأموى المحارب فى خراسان . فلما حانت منيته غريباً ، وحيداً ، مريضاً ، بعيداً عن الأهل والخلان ، أحاطته اللوعة من كل جانب ، وذهبت نفسه حسرات . فراح يبكيها ويرثيها .

فى أول النص تراه يتذكر أيامه الأولى فى بجرشبابه بوادى الغضى يسوق النياق الفتية ، ويتلذذ بذكر اسم هـــذا الوادى فيكرره نحو ست مرات فى ثلاثة أبيات متوالية ، وكان يستطيع الإضمار فى موضع الإظهار ، ولكنه يجد المتاع كله فى أن يكرر اللفظ ، وأن يعيده على مسمعه وعلى خاطره فى وقت محنته .

---

(٢٥) أى مدى الدهر وأبد الدهر .
(٢٦) ما يوضع على ظهر الدابة كالسرج ، وما يستصحب من الأثاث فى السفر .

بعد ذلك يتلفت حواليه باحثاً عمن يبكيه ويرثيه فلا يجد إلا عدة الحرب من سيف ورمح وحصان . وهنا تتوالى على خاطره صور لعلها تتوارد على خواطر المحتضرين فى مثل تلك الحال : فهناك فى مكان بعيد فى الجزيرة العربية نسوة يعز عليهن ما به ، وهنا عند مدينة «مرو» الخرسانية أخذت تحن رفاقه . فيطلب من رفاقه أن يهيئوا له القبر والأكفان . ويصف نفسه عطافاً إذا انهزمت الخيل ، سريعاً إلى الحرب لكل من يدعوه إليها ، صبار على مقارعة الأقران فى حومة الوغى . فحياته لاتخرج عن صورتين ، فهو إما فى نعيم مرفه مقيم ، وإما فى حرب ضروس لاتلين . . وهكذا تصل خواطره إلى الذروة حين يفيض باللوعة والأسى على نفسه ، فيترك ثاوياً فى قبره ، وتصير أمواله إلى غيره .

بعد هذا يتذكر أسرته تلك البعيدة ، طالباً من أم مالك ألا تكف عن نعيه والبكاء عليه ، واصفاً قبره الذى يضم عظامه البالية ، ويتمنى على أصحابه أن يبلغوا خبر موته إلى بنى قومه . وأن يعزوا « قلوصه » تلك التى « ستفلق أكباداً وتبكى بواكيا » .

وينتهى النص بأبيات خمسة حزينة باكية ملتاعة :

فهو غريب ، وحيد ، بعيد الدار ، مقيم فى مكان قفر أبد الدهر ، وهو يدور بعينيه حول رحله ، مؤملا أن يرى البواكى يؤنسنه ، قبل أن يلتقط طائر الموت حبات قلبه ، فلا يرى شيئاً . مع أن له قريبات من النساء فى « الرمل » لو شهدنه على تلك الحال لبكين بكاء مر آ ولفدين الطبيب المعالج بأرواحهن .

وقد كان قلبه معلقاً «بالرمل» وأهله ، فذكره مرتين فى بيت واحد ، ولم يترك به إلا الأحبة . ذكر منهن : أمه وابنتيه وخالته ... وهكذا ينتهى هذا النص .

حول النقائض

تمهيد : من المعالم الأدبية فى فن الشعر فى عصر الأمويين تلك النقائض الشعرية التى دارت بين الأخطل وجرير والفرزدق من أثر تلك الخصومات القبلية التى أعاد الأمويون النار تشتعل فى تلك العصبيات التى عمل الإسلام على القضاء عليها وقد كان الدافع لإثارة تلك العصبيات عاملا سياسياً أراده الأمويون لشغل المجتمع العربى عن الحكم ونظامه فى الدولة الإسلامية والذى ظل على الرغم من ذلك مثار خلاف فى الرأى طيلة قرون طويلة .

وعلى الرغم من أن هذه النقائض كانت خطراً اجتماعياً من حيث إثارتها لنعرة العصبية وإشاعة الفرقة وتنمية الإحن والأحقاد إلا أن آثارها الفنية لا يمكن نكرانها فقد أعطت ثراء شعرياً فى تفجير طاقات فنية حيث يكمن عنصر الإثارة النفسية والوجدانية لدى الشعراء الذين انساقوا إلى تيار تلك النقائض وقد بلغوا أكثر من أربعين شاعراً ثبت منهم فى الميدان ما عرف بالثالوث الأموى « الأخطل — جرير — الفرزدق »

معنى النقائض .

النقيضة قصيدة يرد فيها صاحبها على خصم له . فينقض ما أضافه ذلك الشاعر الخصم إلى نفسه وإلى قبيلته من فضل ، ويجعل ذلك الفضل لقبيلته ويقدم النقائض لخصمه ويلصقها به ، مع مراعاة الشكل الفنى الخاص بأن تكون القصيدة على نفس الوزن والقافية .

نعرض نقيضتين لكل من جرير والفرزدق . أما جرير فهو من بنى كليب بن يربوع من قبيلة « تميم » ، وقد ولد باليمامة أيام عثمان بن عفان ، وكان من بيت فقير متواضع ، وكانت حياته بدوية طبعته بطابعها ، وقد هجاه من شعراء عصره قرابة أربعين شاعراً استطاع أن يخرس أصواتهم ، ويجعلهم ينسحبون من ميدانه ، ولم يثبت أمامه سوى « الأخطل » و « الفرزدق » وكان شاعراً للحجاج الثقفى الذى قدمه إلى عبد الملك بن مروان . كما اتصل بأبناء عبد الملك ومدحهم أيضاً وتوفى عام ١١٠ ﻫ .

وأما « الفرزدق » فهو همام بن غالب من بنى « دارم » ولقب بالفرزدق لضخامة وجهه وجهامته ، والفرزدق فى الأصل قطعة العجين ، وقد ولد الفرزدق بالبصرة ، وظل حياته يدور بين الأمراء والولاة بين مدح وذم ، حتى نشب الهجاء بينه وبين جرير ، واستمر طيلة نصف قرن ، وتوفى سنة ١٥٢ ﻫ .

النص

النقيضة الأولى

للفرزدق

يا بْنَ المراغةِ وَالهِجاءِ إذا الْتَقَتْ أعناقُه[١] وَتَمَاحَكَ الْخَصْمَانِ
ما ضَرَّ تغلبَ وائلٍ أَهَجَوْتَها أَمْ بُلْتَ حيثُ تناطَحَ الْبَحْرَانِ
يا بْنَ المَرَاغَةِ إِنَّ تغلب وائلٍ رَفَعُوا عَنَانِى فَوْق كلِّ عَنَانِ
كَانَ الهُذَيلُ يَقودُ كلَّ طِمِرَّةٍ[٢] دهماءَ مُقْرَبةٍ وَكلَّ حِصانِ
يصْهَلْنَ بالنَّظَرِ البَعِيدِ كأنَّما إرنانُها[٣] ببوائِنِ الأشْطَانِ
يَقْطَعن كلَّ مَدًى بعيدٍ غَوْلُه[٤] خَبَبَ السِّباعِ يُقدنَ بالأرْسانِ
وَكأنَّ راياتِ الهُذَيلِ[٥] إذا بَدَتْ فَوْق الخَمِيسِ كَوَاسِرُ العُقْبانِ
وَرَدوا إِرابَ[٦] بجحْفلٍ منْ وائلٍ لجبِ العشىِّ ضُبَارِكِ الأَركانِ
وَيبيتُ فيه مِنَ المخافةِ عائِذًا ألف عليه قَوانِسُ[٧] الأبْدانِ
تركوا لِتغلِبَ إذ رأَوا أرماحَهم بإِرابَ كلَّ لئيمة مِدْرانِ[٨]

(١) أعناقه : جماعته • التماحك : اللجاجة والخصام •
(٢) طمرة : فرس طويلة فى السماء سريعة • مقربة : أى مقربة •
(٣) أرنانها : أصواتها •
الآبار العميقة • فكأنها تصهل من آبار بوائن لسعته أجوافها •
(٤) غوله : بعده •
(٥) الهذيل : الهذيل بن هبيرة • الخميس : الجيش الضخم •
(٦) أراب : موضع • ضبارك : الجيش الضخم الغليظ •
(٧) القوانس : أعالى البيض • الأبدان : الدرع غير السوابغ •
(٨) مدران : كثيرة الاتساخ • لئيمة : يقصد نساءهم •

تُدمى وَتغلبُ يمنعون بناتِهم أقدامهن حجارةُ الصوان[٩]
يمشين فى أثَر الهذيل وتارةً يُرْدَفنَ خَلْفَ أواخر الرُّكبانِ
لولا أناتُهمْ وفَضْلُ حُلومِهمْ باعوا أباكَ بأوْكَسِ الأثمانِ
وَالحَوفَزان[١٠] أميرهم مُتضائل فِى جَمْعِ تَغلِبَ ضاربٌ بجِرانِ
أَخْبَثْنَ تَغلِبَ إذْ هَبَطْنَ بِلادَهم لما سَمِنَّ وَكُنَّ غيرَ سِمانِ
يَمشِينَ بالفضلاتِ وسْطَ شُروبِهمْ يَتبعْنَ كلَّ عَقِيرَةٍ[١١] وَدُخَانِ
يَتَتابعون إذا انْتَشَوْا ببناتكم عند الإيابِ بأوْكَسِ الأثمانِ
واسْأَلْ بتَغْلِبَ كيفَ كانَ قديمها وقديمُ قومِكَ أوَّلَ الأزمانِ
قوم هم قتلوا ابن هند عنوةً عَمْدا وهُمْ قَسَطوا عَلَى النُّعمانِ
قتلوا الصنائع[١٢] والملوكَ وأوقدوا نارَينِ قد علتا عَلَى النِّيرانِ
لولا فوارسُ تغلبَ ابنةِ وائل نَزَلَ العدوُّ عَلَيْكَ كلَّ مكانِ
حَبَسوا ابنَ قَيصَرَ وابْتَنَوْا برماحهم يَوْمَ الكلابِ كأكرم البُنْيانِ
ولقد عَلِمتَ ليذرِفَنْ ذا بطنِهِ يربوعكم لموَقّصِ الأقرانِ
إنِ الأراقمَ لنْ يُنالَ قديمُها كَلِبٌ عَوَى مُتَهَتِّمُ الأسنانِ
قوم إذا وُزِنوا بقوم فُضِلوا مثلى موازنهم عَلَى الميزانِ

---

(٩) الصيوان : الحجارة الرخوة .
(١٠) الحوفزان : أمير من هذيل . متضائل : متصاغر .
(١١) عقيرة : صوت الغناء .
(١٢) الصنائع : أنصار الملك عكس الوضائع وهم سائر أهل المملكة .

النقيضة الثانية

لجرير

فأجابه جرير يهجو الأخطل ومحمد بن عمير بن عطارد الذى أوعز للأخطل بحكم للفرزدق أمام الأمير :

لمن الدِّيار ببرقة الرَّوحان   إذ لا نَبيعُ زمانَنا بزمان
إن زُرت أهلكِ لم يبالوا حاجتى   وإذا هَجَوْتكِ شَفَّنى هُجْرانى
راجعت بَعْدَ سُلُوّهِنَّ صبابة   وعرفت رسم منازل أبكانى
قد رابنى نزْعٌ وشيبٌ شائع   بعد الشباب وعصره الفينان
شَغَفَ القلوبَ وما تقضّى حاجة   مثل المها بِصَرِيمة الحوْمَان
نزل المشيبُ عَلَى الشباب فراعنى   وعرفتُ منزله عَلَى أخدان
حُور العُيون يمسْنَ غير جوادِف[1]   هزّ الجَنُوب نواعمَ العيدان
وإذا وعدنك نائلا أخلفنه   وإذا غَنيت فهنَّ عَنْكَ غوانى
أصحا فؤادكِ أى حين أوان   أمْ لم يَرُعْكَ تفرّق الجيران
أخطا الرَّبيع بلادهم فتيمنوا   ولحُبّهم أحببْتُ كلَّ يمانى
بكرت حمامة أيكة محزونَة   تدعو الهديل فهيجت أحزانى
لازلت فى غَلَلٍ يَسُرُّك ناقعٍ   وظلال أخضَرَ ناعمَ الأغصان
ولقد أبيتُ ضَجِيع كلّ مخضب   رخصَ الأنامل طيِّب الأردان

(١) حوادف : القصار من النساء . العيدان : النخيل الطوال .

عَطِرَ الثياب مِن العَبير مُذيَّل ... يمشى الهوينا مِشية السَّكْران
صدع الظعائنُ يَوْمَ بِنَّ فؤاده ... صَدْعَ الزُجاجة ما لذاك تَدان
هل تُؤنسان ودير أروى بيننا ... بالأعزَلَين(٢) بواكر الأظعان
وإذا لقيت على زورد(٣) مُجاشِعا ... تَرَكُوا زرود خبيثَة الأعطان
قتلوا الزبير وقيل إنَّ مجاشعا ... شَهِدوا بجمع ضياطِر(٤) عزلان
مِن كلِّ منتفِخ الوَريد كأنه ... بغْلٌ تقاعَسَ فوقه خُرجان
يا مستجيرَ مُجاشِع يخشَى الردى ... لا تأمَنَنَّ مُجاشعًا بأمان
إن ابن شمرة والقرين وضَوْطَرى ... بِئْسَ الفوارس لَيْلة الحدثان
ونسيت أعينَ والرَّباب وجارَكم ... ونوارَ حيثُ تُصَلْصِلُ الحجلان
إنا لَنَعْرِفُ ما أبوكَ بحاجبٍ ... فالحقْ بأصلِكَ مِن بنى دَهمان
لما انهزَمْتَ كفي الثغور مشيع ... منا غَداة جبنتَ غيرُ جبان
ياذا العباءة إن بشراً قد قضى ... ألا تجوزَ حكومةُ النَّشوان
فدعوا الحكُومةَ لستُمْ مِن أهلِها ... إن الحكُومةَ فى بنى شَيْبان
بكر أحق بأن يكُونوا مقنعا ... أو أنْ يَفُوا بحقيقةِ الجيران
كذبَ الأُخَيْطل إنَّ قومِي فيهم ... تاجُ الملوكِ وَراية النُّعمان

---

(٢) الاعزلان : واديان ·
(٣) زرود : مكان ·
(٤) ضياطر : العبيد والتابعون ·

إنى ليُعْرَفُ فى السُّرَادق منزلى　　عِنْدَ الملوكِ وعِنْد كلِّ رِهان

فاقبِضْ يديْكَ فإننى فى مُشْرِف　　صَعْبُ الذُّرَى مُتَمَنِّع الأركان

ولقد وسِمْتَ مجاشعاً ولتغلبٍ　　عندى محاضرة وَطول هَوان

قيسٌ على وضَح الطَّريق وتغلبٌ　　يتقاوَدون تقاوُد العُمْيان

ليس ابن عابدة الصليب (٥) بمنته　　حتّى يذوقَ بكأس مَن عاداني

التعليق

قصيدة الفرزدق : فضل « الأخطل » أمام الأمير « بشر بن مروان » بالكوفة « الفرزدق » على « جرير » قائلا أمام الأمير : « الفرزدق أشعر العرب » . فقام « الفرزدق » يذكر تفضيل « الأخطل » إياه على الشعراء ، ويمدح بنى تغلب ، ويهجو جريراً .

« شعر الفرزدق » يمتاز بصلابة تراكيبه اللغوية ، مع طغيان العنصر الخطابى ، والاهتمام بصخب الألفاظ وعنفها ، والميل إلى الغريب والوحشى ولعل ذلك مادفع النقاد فى موضع مقارنتهم بشعر « جرير » و « الفرزدق » إلى قولهم : إن الفرزدق ينحت من صخر ، وإن جريراً يغرف من نهر » .

تطالعك فى القصيدة صورة لذلك العنف الموجع فى الهجاء ، حيث يعمد إلى التقليل والتهوين من شأن جرير وقبيلته ، ويبين أن « تغلب » قبيلة الأخطل قد رفعت من شأنه وهو هنا كأنه يشير إلى امتنانه وشكره للأخطل الذى قدمه على « جرير » .

ثم تتداعى صوره التى يفخر فيها بالهذيل بن هبيرة وتستمر أبياته التى يصف الأرماح والفرسان والأعلام ، وتستمر صوره التى تقدم قبيلة « تغلب » على غيرها ، وتسجل بطولاتهم ومفاخرهم . مع تقديم مقارنة بين مجد هؤلاء وحطة قوم جرير.

---

(٥) ابن عابدة الصليب : يقصد الأخطل .

قصيدة جرير : يرد «جرير» على الأخطل ، وتحس أبياته تنثال فى عذوبة ورقة فى وقفة على اماكن اللهو والشباب ، وتذكر الأمس الفائت والبكاء على ما ضاع ومن ضاع وتأخذ هذه الأبيات العذبة فى ذكريات الماضى أبياتاً متعددة من القصيدة لاتحس بملل ولا ضيق وهى تنثال عليك .

إلا أنك تراه حين ابتدأ فى هجائه اتخذ طابعاً ساخراً يعتمد على تجسيم الصورة الهازلة فى إعطائها طابعاً شعبياً فى التهكم ، وقد كان ذلك من أسباب رواج شعر «جرير» وسط العامة ، وهو يغمز فى قصيدته «الأخطل» بشربه الخمر حتى أصبح من سماته ، وأن مثله لا يصلح للحكم حتى يقضى بتفضيل «الفرزدق» عليه ، ولما كان «جرير» يعانى من إحساسه باتضاع أصله ، فإنك تجد جريراً يبرر فخره بنفسه لابقومه إلا إشارات يتلمس قرابة لقومه فى البيت الحاكم الأموى ، وسرعان مايحس بأنها : وشائج هشة ، فيعود إلى الفخر بنفسه مرة أخرى .

العصر العباسي الأول

العصر العباسى الأول

يمثل العصر العباسى صورة الازدهار الفنى والفكرى فى مختلف مناحى الحياة ، تآزرت عوامل مختلفة متعددة فى إكسابها رونقها وصقلها حتى أصبح الشعر والنثر ومختلف ألوان الفكر والمعرفة سمة يمتاز بها مجتمع العباسيين .

فنى هذا العصر نرى الحياة ترتدى ثوباً قشيباً من الجدة والطرافة فى مختلف ألوانها — بتغير العربى الذى ألف الصحراء مقيماً وظاعناً يملأ أذنيه ثغاء الشاة ، ورغاء الإبل ، وصهيل الخيل إلى حياة اجتماعية وثقافية جديدة .

فقد وجدت فى هذا العصر عقلية جديدة ملقحة بروافد الثقافات الأجنبية التى راحت تغزو المجتمع العباسى ، وتطبعه بطابعها .

نحن فى عصر العباسيين الذى يقول عنه أحد الباحثين . . « وأما العصر العباسى فعصر الفخامة والمبالغة فى كل شىء . ضخامة الدولة وفخامتها ، وضخامة الجيوش . وتكدس الأموال ، وأبهة الملك ، وسطوة الخلافة ، مظاهر رائعة مختلفة كل الاختلاف عن حياة البادية . . ولم يكن إذاً بد من أن يساير الشعر العربى تلك الحياة الجديدة ، وأن يطرح التواضع والبساطة(١) » .

يضاف إلى ذلك هذا الامتزاج الذى كان بين العرب فى العصر العباسى ، وبين سواهم من الأمم المجاورة ، فقد اختلطت الدماء العربية بدماء أخرى ، قد تكون هذه الدماء الجديدة فارسية ، وقد تكون بيزنطية ، وقد تكون نبطية ، وقد دفعت هذه الدماء الجديدة المتدفقة فى شرايين الجيل الجديد إلى حياة فكرية تتلاءم مع أنماط أفكارهم الجديدة .

---

(١) التجديد والتطور فى الشعر العربى — للدكتور محمد عبد العزيز الكفراوى ط ٢ ص ١٧٦ .

أصبح عصر العباسيين عصر تحضر وفكر ، انعكس ذلك على الخيال الذى كان من أبرز سماته من قبل : الفطرة الشعرية والخيال الذى يمتاز بالعفوية والبساطة التى تعجبنا ببساطتها — تحول العصر إلى حياة عقلية مدنية بالقياس إلى العصرين السابقين عليه . وكان على الشعر أن يخضع لتطور هذه الحياة ، من ميل إلى التفنن الفكرى فى الصورة الشعرية والمعانى والألفاظ مما دفع إلى أن يغلب جانب الصنعة جانب العاطفة .

عن هذه الحياة الثرية الخصبة بالمعرفة التى تنثال عليها ، وعن الترف المادى الذى شمل العصر العباسى يقول الدكتور طه حسين : « وكان العراق بالضبط أخصب مركز لهذه الحضارة الناضجة الرشيدة المثمرة فيه التقت أكبر الأجناس التى تتألف منها الدولة الإسلامية . فيه كان العرب ومعهم تراثهم التليد والطريف من الأدب والدين ، وفيه كان الفرس ومعهم حضارتهم الساسانية المعقدة التى تمتاز بالترف المادى والعقلى معاً ، وفيه كان أخلاط الساسانيين الذين نقلوا تراث اليهود ، وتمثلوا تراث اليونان . وكانوا تراجمة لهذه الحضارة الجديدة(١) » .

كان من نتاج ذلك أن تأثر الشعر والنثر بهذه الحضارات الجديدة ، وأثر التحضر فى الشعر من الأمور التى يسلم بها الأقدمون أنفسهم .

نجد مثالا على ذلك عند الناقد العربى « عبد العزيز الجرجانى » فى كتابه « الوساطة » يضع عنواناً هو « أثر التحضر فى الشعر » يقول تحته : « فلما اتسعت ممالك العرب ، وكثرت الحواضر ، ونزعت البوادى إلى القرى ، وفشا التأدب والتظرف ، اختار الناس من الكلام ألينه وأسهله » . . . وأعانهم على ذلك لين الحضارة وسهولة طباع الأخلاق . واحتذوا بشعرهم هذا المثال ، وترققوا ما أمكن ، وكسوا معانيهم ألطف ما سنح من الألفاظ(٢) » .

لذلك نجد الشعر العباسى تتمثل فيه خصائص فنية لم تتوافر فيما سبق من حيث تنوع الموضوعات ، والتفنن فى ضروب القول ، وفى الغوص وراء المعانى الجديدة المبتكرة .

---

(١) مع المتنبى ج ١ ص ٣٩ .
(٢) الوساطة ج ٣ ص ١٨ — دار احياء الكتب العربية .

ها هو ذا شاعر مترف يصور لنا هذه الحياة المترفة الناعمة وهو يصف بيوت الوزراء المترفة العريضة الفسيحة الشاهقة فيقول :

صحون تسافر فيها العيون وتحسر عن بعـــد أقطارها
وفوّارة ثأرها بالعـــراق أضاء الحجاز سنا نارها
ترد على المزن ما أنزلت على الأرض من صوب أمطارها
لهـــا شرفات كأن الربيع كساها الرياض بأنـــوارها

أرأيت إلى تلك القصور بصحونها البعيدة التى لا تصل العيون إلى أقطارها ؟

أرأيت إلى تلك الشرفات الناعمة المؤرجة بعطر الربيع ، والتى كستها الرياض بزهرها وأقاحها .

أرأيت إلى تلك النافورات التى ترد على المزن ما أنزلت ، فلم تعد الأرض فى عصر العباسيين جدباء مقفرة تحلم بصوب الغمام وقطرات المطر .

انظر إلى هذين النموذجين من الاعتذار وهما من عصرين مختلفين . أما أولهما فمن العصر الجاهلى وأما ثانيهما فمن العصر العباسى لترى كيف اختلفت الصورة الشعرية .

يقول النابغة الذبيانى:

فلا تتركنى بالوعيـــد كأننى إلى الناس مطلى به القار أجرب
ألم تر أن الله أعطاك سورة ترى كل ملك دونها يتذبذب
ولست بمستبق أخا لا تلمه على شعث أى الرجال المهذب

ويقول أبو نواس الشاعر العباسى يعتذر للخليفة العباسى :

بك أستجير من الـــردى وأعـــوذ من سطوات باسك
وحيـــاة رأسك لا أعـــود لمثلهـــا وحيـــاة رأسك
فإذا قتلت أبـــا نـــوا سك من يكون أبـــا نواسك

فأين هذه الأبيات من أبيات النابغة السابقة ، وهى التى تضج بالفخامة والجزالة .

وليس معنى ذلك أن الشعر فى العصر العباسى مال إلى بساطة العبارة وترك العمق الفنى فليس هذا مقصودنا ، وإنما نعنى أن هذا العصر قد تخلى عن كثير من تقاليد القصيدة الجاهلية ، وأخذ لنفسه معايير فنية جديدة .

يقول الدكتور طه حسين عن هذا العصر ومعاييره الفنية . « حدثت معان لم يكن يألفها القدماء فيجب أن تحدث لهذه المعانى ألفاظ غير الألفاظ التى ألفها القدماء رقت حاشية الحياة الحديثة وظهر فيها الترف ولين العيش فيجب أن تصطنع الألفاظ الرقيقة لهذه الحياة الرقيقة » .

نخلص من ذلك إلى أن طبيعة العصر المادية والفكرية استلزمت شيوع التعبير الجديد والتصوير الجديد فى الشعر القائم على التزاوج بين الأفكار وتوليد المعانى المستطرفة والغوص وراء الفكر الجديد .

ونعرض لبيتين قيلا فى غرض واحد وفى ظروف متحدة ومع اختلاف الشاعرين أما أولهما فأموى وأما آخرهما فعباسى فترى فكيف تستحم الكلمات العباسية فى قطرات أنيقة من الصفة اللفظية والنعومة التعبيرية تجاوبا مع البيئة نفسها التى تتنفس فيها حروف هذه الكلمات .

يقول الفرزدق :

وركب كأن الريح تطلب عندهم لها ترة من جذبها بالعصائب

ويقول ابن المعتز :

والريح تجذب أطراف الرداء كما أفضى الشفيق إلى تنبيه وسنان

ألا ترى قوة الريح الأولى التى لها « ثأر » قديم فهى تجذب العصائب جذباً تشدها شداً فى بيت الفرزدق ، لكن هذه الريح فى بيت ابن المعتز شفوقة عطوفة نى فى رقة وأناقة وهدوء لتنبه الوسنان بيد رقيقة إنها رياح العصر وإنها نسمات ة والعذوبة التى سيجعلها البديع بفنه وألوانه تفيض رقة وعذوبة وانظر إلى طرفه ن التشبيه يصف مغنية فماذا يقول ؟

وكأن رجع حديثها قطع الرياض كسين زهراً

إنها البيئة الجديدة المترفة الناعمة التى هى روض مونق عليه أردية ندية من وعبير .

لقد بدأ التصوير الشعرى يأخذ فى العصر العباسى طريق التكثيف الفنى الذى يقدح الفكر حتى تنصهر الكلمة الفنية فى بوتقة خيالية جديدة ، كما كان الامر عند أبى تمام مثلا والذى أثار شعره جدلا عنيفاً بين النقاد ، كما وجدنا شعراء يرقصون شعرهم بالنغم كالبحترى مثلا ، ووجدنا شعراء يتأثرون بثقافة يونانية كابن الرومى فى استقصاءاته وتحليلاته ، ودورانه حول المعنى حتى يستوفيه من جميع نواحيه .

كما كان للفرس تأثيرهم أيضاً يحدثنا عنه كارل بروكلمان قائلا : وقد رجحت كفة هؤلاء العجم فى الدولة العباسية وسرعان ما ظهر أيضاً تأثيرهم فى آداب العرب . . . تغلغلت أناقة التعبير ورقة الذوق فى أساليب الشعر البدوى باطراد ، حتى أمكن أن تتلاشى طبيعة ذلك الشعر البدوى بعد ثلاثة قرون(١) .

ويقول الدكتور أحمد أمين : « ومما يجب التنبيه له أن كثيراً من حاملى لواء الأدب فى ذلك العصر من شعراء وكتاب كانوا من أصل فارسى من ناحية الأبوين معاً أو أحدهما ، ثم تعلموا اللغة العربية وحذقوها ، فكان تجديدهم للأدب مديناً للفرس والعرب معاً ، فأدخلوا على الأدب العربى عناصر جديدة لم تكن ، فبشار الفارسى يخترع تشبيهات جديدة لم يستعملها العرب ، وأبو العتاهية زعيم الشعر الدينى والسابق إليه من الموالى ، وأبو نواس المتخصص فى الخمر وما إليها هو نصف فارسى . وكذلك الشأن فى الكتاب وما أدخلوا من أساليب كابن المقفع وسهل بن هارون . كل هؤلاء من أصل فارسى . أو مايقرب منه ، فما أنتجوه من غير شك نتاج الأصل الفارسى ، والثقافة العربية وملون بالحياة الاجتماعية التى كان يعيشها فى العراق (٢) .

ظل هذا الازدهار الشعرى مركزاً فى عاصمة العباسيين « بغداد » حتى نهاية عصر المتوكل والذى يطلق عليه المؤرخون « العصر العباسى الأول » وما بعده حتى نهاية الدولة العباسية سنة ٦٥٦ يطلقون عليه « العصر العباسى الثانى » . وإن كنا نفضل أن نسمى هذا العصر الثانى بعصر الدويلات الإسلامية ، حيث تتعدد المجتمعات العربية فى إماراتها المختلفة . ويتجمع الشعراء فى بلاط كل أمير وإن كان الشام والعراق ظلتا رائدتين لهذه التجمعات .

---

(١) تاريخ الأدب العربى ترجمة عبد الحليم النجار جـ ٢ ص ٢٢ .
(٢) ضحى الاسلام جـ ١ ص ٧٨ .

في مجتمع الحمدانيين بحلب ارتفع صوت المتنبي مشيداً بانتصارات سيف الدولة الحمداني في حروبه ضد الروم ، كما وجدنا صوت الشاعر « أبي فراس الحمداني » في أشهر ما عرف له من قصائد قالها في أسره .

من ذلك ندرك أن عصر الدويلات الإسلامية على الرغم من السمة السياسية ووجود الأقاليم التي تتميز بشبه استقلال عن الدولة العباسية التي انكمش ظلها في بغداد وما حولها ، فإن الشعر والفن بوجه عام ظل باسقاً ونضراً نتيجة اهتمام الأمراء والحكام بحركة الأدب إما عن تذوق فني كان يمتاز به هؤلاء الحكام ، وإما استكمالا لمظاهر الحكم والتي كانت تستلزم أن يكون للحكام شعراء يشيدون بهم .

نستطيع على ذلك أن نقول بأن روح الشعر ظلت خفاقة وتضم بين جناحيها النثر بفنونه المختلفة ، فعلى سبيل المثال نجد صوت أبي العلاء المعري وقد امتزج بالفلسفة والحكمة في نظراته التي شملت البعد الإنساني والتاريخي سواء في شعره أو نثره .

ولعل « رسالة الغفران » نموذج لموقف الشاعر الناثر من مجتمعه ومن مسائل مختلفة في الوجود الإنساني كله .

وإذا كان المشرق العربي ظل النموذج والمثال أمام الأقاليم المختلفة فإن الأندلس استطاعت أن تواكب التيار الفني مقلدة هذا المشرق أحياناً محتذية شعراءه ، مستقلة بروحها الخاصة أحياناً أخرى كما في شعر الطبيعة الذي ازدهر على يد شعراء الأندلس، بالإضافة إلى ابتكارهم أشكالا شعرية جديدة فيما عرف باسم « الموشحات » .

يضاف إلى ذلك الحركة العقلية الضخمة التي نجدها في كتابات ابن رشد وغيره وكانت الأندلس منارة علمية يفد إليها أهل الغرب لينهلوا من الثقافة العربية التي تعهدها الأندلسيون ، وكان فخر الغربي أن يتثقف على يد هؤلاء العرب في الأندلس العربية .

وظل هذا الازدهار الأدبي قائماً في مختلف الأقاليم ، حتى وفد إلى مصر هرباً من محاكم التفتيش في الأندلس بعد سقوط الحكم العربي بها ، وهرباً من التتار بعد سقوط دولة العباسيين ، فأكرمت مصر وفادته وحاولت أن تمده بطاقة من الأمل إلا أن زحف الظلام القادم من الغزو العثماني فرضت ظلها وقتامها عليه فترة من الزمن حتى جاء العصر الحديث بنهضته الأدبية المعروفة .

وصف صديق

لابن المقفع

— ١ —

تمهيد : ابن المقفع فارس الأصل ، نشأ فى البصرة وفيها قتل سنة ٧٥٩ م .

كتب لبعض الأمويين وأدب أبناءهم ، وأسلم على أيديهم ثم تورط فى أفكار شعوبية زمن الخليفة أبى جعفر المنصور .

وقد ظهر ذلك فى بعض ما كتب . حين كان معجباً بحضارة قومه الفارسيين وله إنتاج أدبى كبير كشف فيه عن عيوب المجتمع الإسلامى فى زمنه ووضع أسساً ونظماً لإصلاح هذه الحال ، ولعل ذلك أو بعضه من أسباب قتله .

أشهر كتبه : كليلة ودمنة ، حيث ترجمه من الفارسية إلى العربية ، وله كتاب الأدب الكبير ، والأدب الصغير ، ورسالة الصحابة ، وغيرها .

النص

إِنِّى مُخْبِرُكَ عَنْ صَاحِبٍ لِى كَانَ أَعْظَمَ النَّاسِ فِى عَيْنِى وكَانَ رَأْسَ مَا عَظَّمَهُ فِى عَيْنِى صِغَرُ الدُّنْيَا فِى عَيْنِهِ .

كَانَ خَارِجًا مِنْ سُلْطَانِ بَطْنِهِ ، فَلَا يَتَشَهَّى مَا لَا يَجِدُ ، وَلَا يُكْثِرُ إِذَا وَجَدَ . وَكَانَ خَارِجًا مِنْ سُلْطَانِ فَرْجِهِ فَلَا يَدْعُو إِلَيْهِ رِيبَةً ، وَلَا يَسْتَخِفُّ له رَأْيًا وَلَا بَدَنًا . وكَانَ لَا يَأْشَرُ[1] عِنْدَ نِعْمَةٍ وَلَا يَسْتَكِينُ عِنْدَ مُصِيبَةٍ وَكَانَ خَارِجًا مِنْ سُلْطَانِ لِسَانِهِ ، فَلَا يَتَكَلَّمُ بِمَا لَا يَعْلَمُ ، وَلَا يُمَارِى[2] فِيمَا عَلِمَ . وَكَانَ خَارِجًا مِنْ

---

(١) يأشر : يبطر .   (٢) يمارى : يجادل .

سُلطانِ الجَهالَةِ فلا يَتقَدَّمُ أَبدًا إلّا عَلَى ثِقَةٍ بِمَنْفَعةٍ . وَكَانَ أَكثَرَ دَهْرِه صَامِتاً فإذا نَطَقَ بَذَّ القائلِينَ . وَكان يُرَى ضَعِيفاً مسْتَضْعَفاً ، فإذا جدَّ الجِدَّ فَهُوَ اللَّيثُ عَادِياً . وَكانَ لا يَدْخُل فِي دَعْوى ، وَلا يُشَارِكُ فِي مِرَاءٍ ، وَلا يُدْلِي بِحُجَّةٍ حَتّى يَرَى قاضِيًا فَهِمًا ، وَشُهوداً عُدُولا ، وَكانَ لا يَلُومُ أَحَداً عَلَى مَا قَدْ يكون العُذْرُ فِي مِثْلِهِ حَتّى يَعْلَم ما اعْتِذَارُهُ . وَكانَ لا يَشْكُو وَجَعَهُ إلّا إلى مَنْ يَرْجُو عِنْدَهُ البُرْءَ ، وَلا يَسْتَشِيرُ صَاحِباً إلّا مَنْ يَرْجُو عِنْدَهُ النَّصِيحَةَ ، وَكانَ لا يَتَبَرَّمُ(١) وَلا يَتَسَخَّطُ وَلا يَتَشَكَّى وَلا يَتَشَهَّى ، وَكانَ لا يَنْقِمُ عَلَى الوَلِي ولا يَغْفُل عَنْ العَدُوِّ ، وَلا يَخُصُّ نَفْسَهَ دُون إخْوَانِهِ بِشَيْءٍ مِنَ اهْتِمَامِهِ وَحِيلَته وَقُوَّتِهِ .

فَعَلَيْكَ بِهذِهِ الأَخْلاقِ إنْ أَطَقْتَها — وَلَنْ تطيقَ — وَلكِنَّ أَخْذَ القَلِيل خَيْرٌ مِن تَرْكِ الجَمِيع .

— ٢ —

وصف صديق

لصادق عنبر

تمهيد : صادق عنبر من أدباء العصر الحديث مات مبكراً وكان مقلا فى كتابته مع التأنق الشديد فيما يكتب وقد كتب القطعة المذكورة تحت عنوان « أدب عصرين » يصف صديقاً له مهتدياً، كما يقول — بهدى ابن المقفع فى وصفه السابق .

---

(١) يتبرم : يضجر .

النص

إِنِّى مُخْبِرُكم عَنْ صَاحِبٍ لِى مَلَأْتُ مِنْهُ يَدِى ، وَطَوَيْتُ عَلَى حُبِّهِ نَفْسِى ، وَجَعَلْتُهُ مِنِّى مِنْ بَيْنِ صَحْبِى .

فَقَدْ كانَ بَصِيرًا بِوِرْدِ الأُمورِ وَصَدَرِهاَ ، يَعْرِف مِنْ مُطَّلَع كل أَمْرٍ مَا يَكُونُ مَقْطَعُهُ ، وَتَقوم أَدْنَى فَرَاسَةٍ مِنْهُ مَقَام الْبَيِّنَةِ وَيُصِيب بالظَّنِّ ماَ يُخْطِىءُ غَيْرَه بالعيان .

كَانَ أَكْتَمَ ماَ يكونُ لِلسِّرِّ إِذا باحَتْ الأَلسنة من الأسرار بمصونها ، وَانفَرَجَتْ صُدور الثِّقَاتِ عَنْ مَكْنُونِهَاَ .

كانَ أَبِياًّ لَوْ خُطِبَتْ لَه إمارَة على أَن يَكُونَ مَهْرُها ذُلَّ سَاعَةٍ لآثَرَ أَن يُزَفَّ إِلَى قَبْرِهِ على أَن تُزَفَّ إليه الإمارَةُ .

كَانَ صَلْبَ الْعُودِ على النُّوَبِ ، إذا رَماه الدَّهْر بخَطْبٍ يبْلوه ، جُلِىَ منهُ الخطبُ بالنَّفْسِ الْمُرَّةِ وَالْخُلُقِ الْوَعْرِ وَالصَّدْرِ الذى تَضِلُّ فى ساحَةِ صَبْرِهِ كل نائبة .

كَان مُتَوَرِّعًا لا يَقُومُ مَقامًا يَقَعُ عَلَيْهِ ظِلُّ رِيبَةٍ وَلا يَقِفُ مَوْقِفًا تَسْحَبُ فِيه ذيلِهَاَ شُبْهَة ، وَلا يَقُول قَوْلَةً أَوْ يَنْظُرُ نَظْرَةً تعقُبُهاَ ظِنَّةٌ .

كَانَ كَرِيمًا جَمَّ الإِيثَارِ ، يطْوِى بَطْنَهُ عَنْ جَارِهِ وَلا يَمْلِكُ

مِنْ مَالِهِ أَكْثَرَ مِمَّا يَمْلِكُ مِنْهُ إِخْوَانُهُ .

كَانَ يَقْنَعُ بِالْقَلِيلِ ، فَمَا أَكَلَ فَبَلَغَ الشِّبَعَ ، وَلَا شَرِبَ إِلَّا دُونَ الرِّيِّ ، وَلَا لَبِسَ مُنَمْنَمًا وَلَا مُعْلَمًا ، وَلَا تَوَسَّدَ حَرِيرًا وَلَا وَثِيرًا ، وَكَانَ فِيهِ عِزَّةُ الْمُلْكِ وَعَلَيْهِ سِيمَى الزَّاهِدِينَ .

كَانَ فَتِيًّا وَلَكِنْ هِمَّتُهُ كَانَتْ تَرْمِي بِهِ وَرَاءَ سِنِّهِ ، وَهُوَ يَرْمِي بِهِمَّتِهِ حَيْثُ أَشَارَ إِلَيْهِ السُّؤْدُدُ .

كَانَ بَاهِرَ الأَدَبِ يُشِيرُ عَلَيْكَ مُوهِمًا أَنَّهُ يَسْتَشِيرُكَ ، وَيَدُلُّكَ عَلَى الرَّأْيِ وَكَأَنَّهُ يَسْتَدِلُّ بِكَ عَلَيْهِ ، وَيُرِيكَ مَقْطَعَ الْحَقِّ وَيَدَعُ لَكَ أَنْ تَقْطَعَ مِنْ دُونِهِ ، وَلَوْ رَأَيْتَهُ وَقَدْ مَثُلَ بَيْنَ يَدَيْهِ مُسْتَفِيد لَحَسِبْتَهُ بَيْنَ يَدَيِ الْمُسْتَفِيد مَاثِلاً ، أَوْ سَمِعْتَهُ وَهُوَ يُجِيبُ مَسْئُولاً لَحَسِبْتَهُ سَائِلاً .

كَانَ أَمْلَكَ مَا يَكُونُ لِنَفْسِهِ إِذَا رَضِيَ ، وَلِحِلْمِهِ إِذَا غَضِبَ ، وَلِجِدِّهِ إِذَا لَعِبَ ، وَلِوَقَارِهِ إِذَا طَرِبَ .

كَانَ طَوِيلَ الصَّمْتِ كَأَنَّ بِلِسَانِهِ عِوَجًا فَإِذَا نَطَقَ اسْتَقَامَ عَلَى نَهْجٍ مِنَ الْبَيَانِ تَتَرَاءَى فِيهِ حِكَمٌ تَأْخُذُ الْمَرْءَ قَبْلَ أَنْ يَأْخُذَهَا .

كَانَ قَلِيلاً مَا يَكْتُبُ ، فَإِذَا مَضَى عَنْ كِتَابٍ كَانَ الْكِتَابُ

مِنْ يَدِكَ إِلَى عَقْلِكَ إِلَى رُوحِكَ ، كَالزَّهْرَةِ النَّاضِرَةِ تَرَاهَا نَسِيجًا فِي أَنَامِلِكَ حَرِيرُهُ ، ثُمَّ تَعْرِفُهَا طِيبًا فِي أَنْفِكَ عَبِيرُهُ ثُمَّ تُدْرِكُهَا شِعْرًا فِي نَفْسِكَ وَحْيُهُ وَتَعْبِيرُهُ .

كَذَلِكَ كَانَ صَاحِبِي ، وَلِبَعْضِ تِلْكَ الْخِلَالِ يُكْبِرُ الرَّجُلُ الرَّجُلَ ، وَلَكِنَّهُ :

صَفِرَتْ كَفِّي مِنْهُ وَمَضَى   وَقَدْ امْتَلَأَتْ مِنِّي يَدُهُ .

نشاة طفلين

لمحمد بن عبد الرحمن الهاشمى

تمهيد : « البرامكة »، أسرة استولت على السياسة والملك فى عهد هرون الرشيد ، وكان لهم السلطان الفعلى فى البلاد وظهر منهم فى أوائل الدولة العباسية « خالدبن برمك» الذى تقلد الوزارة فى عهد السفاح والمنصور واتخذ هرون الرشيد يحيى بن خالد قبل أن يلى الخلافة كاتباً له ، يرجـــع إلى رأيه وتدبيره كما يرجع الخليفة إلى رأى الوزير وتدبيره .

وكان يحيى بن خالد البرمكى أشهر رجال عصره علماً وأدباً وفضلا وجوداً ونبلا، ولما قلد هرون كاتبه المخلص الوفى الوزارة بعد اعتلائه العرش وفوض إليه أمور دولته ، واستعان بأولاده الأربعة وهم : جعفروالفضل ومحمد وموسى .

— ونهض يحيى بأعباء الدولة أتم نهوض وسد الثغور وتدارك الخلل وعمر الأطراف ، وأظهر رونق الخلافة .

وكان الفضل، أكبر أولاد يحيى — من كرام أهل عصره ، وكان عضد أبيه ينوب عنه فى جلائل أعماله ، ولما ولد الأمين عهد الرشيد للفضل بتربيته . ولاه هرون الرشيد بلاد خراسان فقضى على الفتنة التى قامت بها وأحسن معاملة أهلها ، وبنى بها المساجد ثم عاد إلى بغداد بعد سنة .

— واشتهر جعفر بن يحيى بالفصاحة والفطنة والحلم والكرم وكان الرشيد يأنس به لسهولة أخلاقه ، ويؤثره على أخيه الفضل لشراسة أخلاقه .

وهكذا صار لأسرة البرامكة بصفة عامة وليحيى بن خالد وولديه : جعفروالفضل بصفة خاصة منزلة عالية فى عهد الرشيد فانصرف الناس إليهم ونظموا القصائد الرائعة فى مدحهم .

قيل : إن الرشيد حج ومعه يحيى وأبناه الفضل وجعفر فلما وصلوا إلى المدينـــة المنورة جلس الرشيد ومعه يحيى فأعطيا الناس ، وجلس الأمين ومعه جعفر فأعطيا الناس . وقد ضربت الأمثال بكثرة هذه الأعطيات الثلاث حتى كانوا يسمون هذا العام عام الأعطيات الثلاث .

الآن نستمع من محمد بن عبد الرحمن الهاشمى يقص لنا جانباً من طفولة هذين العظيمين : جعفر والفضل :

النص

محمد بن عبد الرحمن الهاشمي

قال : كانت أمُّ جعفر بن يحيى تزورُ أمِّي وكانت لبيبةً من النساء، حازِمَةً بَرْزَةً(١) . يعجبُني أن أجِدَها عندَ أمِّي فأستكْثِرَ من حَديثِها ، فقُلْتُ لها يَوْمًا : يا أمَّ جعفرٍ : إن بعضَ الناسِ يُفَضِّلُ جعفراً عَلى الفضْلِ ، وبعضُهُمْ يُفَضِّلُ الفضْلَ عَلَى جعفرٍ فأَخْبِرِيني . فقالت : ما زِلْنَا نَعْرِفُ الْفَضْلَ لِلفَضْلِ فقلت: إن أكثرَ النَّاسِ على خِلافِ هذا فقالت: هَأنا أُحَدِّثُكَ وَاْقضِ أنتَ ، وذلك الَّذي أردتُ مِنها . فقالت : كانا يَوْمًا يَلْعبان في داري فَدَخَلَ أبوهما فدَعا بالغَدَاء وأحضَرَهُما ، فطعِما معه ثم آنَسَهُماَ بحديثِه ، ثم قال لهما : أتَلْعَبَانِ بِالشِّطْرَنْج ؟ فقال ، جعفرٌ وكان أجرأهما : نعم ! قال : فهل لاعَبْتَ أخاكَ بها ؟ قال جعفر : لا ! قال: فالعَبَا بِهاَ بَيْنَ يَدَيَّ لأرى لمن الغَلَبُ . فقال جعفرٌ : نعم ! وكان الْفَضْلُ أبصَرَ مِنْهُ بِهاَ . فَجِيء بالشِّطْرَنْج وَصُفَّت بينَهُماَ ، وأقبلَ عليها جَعْفَرٌ وأعْرَضَ عنها الفَضْلُ . فقال له أبوه : مالَكَ لا تُلاعِبُ أخاكَ ؟ فقال :

---

(١) البرزة : الكهلة الجليلة تبرز للقوم يجلسون اليها يتحدثون اليها وهى عفيفة .

لا أُحِبُّ ذلكَ فقال جعفرٌ : إنه يَرَى أنَّهُ أعْلَمُ بِهَا مِنِّى فيأنَفُ مِنْ مُلاَعَبَتِى ، وأنا ألاعِبُهُ مُخَاطَرَةً[٢] .

فقال الفَضْلُ : لا أفعَلُ . فقَالَ أبوه : لاعِبْهُ وَأنَا مَعَكَ . فقال جَعْفرٌ رَضِيتُ . وأبَى الفَضْلُ وَاسْتَعْفَى[٣] أبَاه فأعْفَاه ثمَّ قالَتْ لى : قَدْ حَدَّثْتُكَ فاقْضِ . فقلت : قد قَضَيْتُ بِالْفَضلِ لِلفضلِ عَلَى أخِيهِ . فقالت : لَوْ عَلِمتَ أنَّكَ لا تُحْسِنُ الْقضاءَ لما حَكَّمْتُكَ . أَفَلا تَرَى أنَّ جَعْفَراً قد سَقطَ أرْبَعَ سَقَطَاتٍ تَنزَّهَ الْفَضلُ عَنْهُنَّ : فَسَقطَ حِينَ اعْتَرَفَ عَلَى نفسِهِ بأنَّه يَلعَبُ بالشِّطرنج ، وَكَانَ أبوه صاحبَ جِدٍّ[٤] . وسَقطَ فى الْتِزَامِ مُلاعبة أخيهِ ، وَإظْهَارِ الشَّهْوَةِ لِغلبِهِ ، وَالتعَرضِ لغضبَهِ . وَسَقَطَ فِى طَلَبِ الْمُخَامَرَةِ وَإظهارِ الحِرْصِ عَلَى مالِ أخيهِ . والرَّابعة قَاصِمَةُ الظَّهْرِ حِينَ قَالَ أبوه لِأخيه : لاعِبْهُ وَأنَا مَعَكَ . فَقالَ أخوه لَا ، وَقالَ هو نَعَم ؛ فناصَبَ[٥] صَفًّا فيه أبوه وَأخوه ، فَقُلتُ : أحسنتِ واللهِ ! وإنّكِ لأقضَى مِنَ الشَّعْبى[٦] ثم قلت لهَا : عَزَمْتُ[٧]

---

(٢) المخاطرة : المراهنة .
(٣) استعفاه : طلب منه الا يكلفه اياه .
(٤) الجد : ضد الهزل .
(٥) ناصبه : عاداه وقاومه .
(٦) الشعبى : أحد رجال الحديث والقضاء .
(٧) عزمت عليه : أقسمت .

عليك أن تخبرني عن إهمال الحق مثل هذا على جعفر، وقد فطن له أخوه؟ فقال الفضل: لولا الأمور التي لا أخبرتك بها، إن أباهما لها حرج. قالت للفضل خالصة: بعد ما علمته من إخفائك السر، أتخفي علي أنك تعلم بملاعبة أخيك؟ فقال: لأمرين: أحدهما أني لا أحب أن يغلبني فأخاطره، والثاني: قول أبي لاعبه وأنا معك، فما يسرني أن يكون لي مثل ما له على أخي. ثم خلوت بجعفر فقلت له: يسأل أبوك عن اللعب بالشطرنج فيعلمه أخوك وتنتصف، وأبوك صاحب جد، فقال: إني سمعت أبي يقول: نعم لهو الملك المكدود(٨)، وقد علم ما نلقاه من جد التعلم والتأدب ولم آمن أن يكون بلغه أنا نلعب بها، ولا أن يبادر فينكر، فبادرت بالإقرار إشفاقا على نفسي وعليه، وقلت: إن كان توبيخ فديته من المواجهة له. فقلت له: فديتك يا بني فكم تقول لاعبه مخاطرة له، كأنك تقامر أخاك وتستكثر ماله، فقال: لا كلا ولكنه يستحسن الدواة التي وهبها لي أمير المؤمنين، فعرضتها عليه فأبى قبولها، وطمعت أن يلاعبني فأخاطره عليها وهو يغلبني فتطيب نفسه بأخذها. فقلت لها: يا أمتاه، فما كانت هذه الدواة؟ فقالت: إن جعفرا دخل على أمير المؤمنين فرأى بين يديه دواة من العقيق الأحمر محلاة بالياقوت

(٨) المكدود : المتعب .

الْأَزرق وَالْأَصفر فرآه يَنظر إليها فَوَهَبَها له . فقلتُ إيه . فقالت . ثمَّ قلتُ لجعفر هَبْكَ اعتذرتَ بما سمعتُ فما عُذركَ من الرِّضا بمناصبة أبيكَ حينَ قالَ لاعِبْه وأنا معكَ ؟ فقلتَ أنتَ : نعم ، وقالَ هُوَ : لا . فقالَ: عَرَفتُ أنه غالبني . ولو فترَ لعبُه لتغالبتُ له مَعَ ماله من الشرف والسرور بتحيز أبيه إليه قال محمد بنُ عبدالرحمن فقلتُ: بَخٍ بَخٍ[9] ، هَذِهِ وَاللهِ السِّيادَةُ . ثمَّ قلتُ لها : يا أمَّاهُ : أ كانَ منهما مَنْ بلغَ الحُلُمَ ؟ فقالتْ : يابنيَّ : أينَ يذهَبُ بك ؟ أخبرُكَ عن صبيَّينِ يلعبانِ فتقولُ: أ كانَ منهما مَن بلغَ الحُلُمَ ، إنما كُنَّا نَنْهى الصَّبيَّ إذا بلغَ العَشرَ وحَضَرَ مَنْ يُستحى منهُ أنْ يبتسِمَ .

التعليق

من قصة الهاشمى نعلم أن « الأسرة الطيبة » كانت وراء عظمة كل من جعفر والفضل . أب سياسى ماهر ، وأم لبيبة من النساء يستكثر الناس من حديثها ، ويتلهفون على معرفة أخبارها ، وكانت آية فى الذكاء . والدقة فى إدراك جوانب النبوغ عند الآخرين ، والتوجيه إليه ، ترصد حركات أولادها ، تستمع إلى أحاديثهم ، ثم توجه توجيهات مناسبة ، تسأل وتناقش ، وتستمع وتحاور ، وخلال ذلك تصدر الأحكام الموجهة .

وقد رأينا ثمرة الوراثة والبيئة والتربية فى تصرفات الطفلين جعفر والفضل ، إن كلا منهما يتصرف تصرفا يعجز عنه الرجال ، وتقصر دونه عقول الأذكياء بله العاديين من الناس ! !

---

(٩) بخ . بخ : اسم فعل للمرح واظهار السرور بالشىء .

ونلحظ من سياق القصة احترام الولدين لوالدهما ، وحرصهما على إرضائه بأقوالهما وأعمالهما ! ! والاستحياء من الآخرين واحترامهم .

كما نلحظ حب الطفلين كل منهما لأخيه ، وتحسس رغباته ، والمحافظة على مشاعره — وتقديم الجميل إليه دون تباه أو من ! ! .

وكان نوع اللعب الذى يشغل به الطفلان نفسيهما لعباً مفيداً . .

وكانت الهدايا التى تقدم للأطفال هدايا لها مغزاها وأثرها فى التوجيه العلمى ، والحث على الاستزادة من القراءة والكتابة وكانت الاجتماعات التى يغشاها الأطفال اجتماعات مثمرة تفيد فى البناء النفسى .

ومن هنا أثمرت هذه التربية ثمرتها فكراً وقولا وعملا ، وهيأت النشء للرياسة وتولى أمور الدولة وإدارتها سياسياً واجتماعياً فنهضوا بها وحققوا لها تقدماً وازدهاراً ! !(*)

(*) دكتور مسعد شلبى

رسالة التربيع والتدوير

الجاحظ

تمهيد : الجاحظ . كاتب نابه . وعالم أديب . وهو بعلمه وأدبه يوضع على قمة الكتاب فى العصر العباسى الأول .

والجاحظ من أصل عربى ولد بالبصرة ١٥٩ هـ ونشأ بها نشأة فقيرة ، وكان مشغوفاً منذ حداثته بقراءة الكتب لايقع فى يده كتاب إلا أتى عليه ، وكان يكترى « دكاكين الوراقين » (المكتبات) ويبيت فيها للقراءة ، والبحث ، وبذلك صار نابغة عصره ، دائرة معارف ، يعرض فى كتاباته ألواناً من الثقافات الهندية ، والفارسية واليونانية والعربية ، ويتعرض لفروعها المختلفة : الدينية ، والأدبية ، والعلمية . ويشكل كل ثقافة من هذه الثقافات بفروعها المتعددة ، فى الدين يعرض : للقرآن والحديث ، والتفسير ، والفرق الإسلامية ، والحكمة الهندية . . .

وفى الأدب : يعرض للشعر والنثر ، وينقد النص : ويوازن بين الشعراء . . .

وفى العلم : ينظر ، ويبحث ، ويستقرىء ، ويجرب ، ويجادل ، ويحاور . . .

وتجد الطابع اليونانى قد صبغ ثقافاته بصفة عامة .

وانتقل الجاحظ من النظر والقراءة ، إلى التأليف ، فكان من نتاجه العلمى :

« كتاب الحيوان » و« البيان والتبيين » و« البخلاء » .

« وكان حكام عصره يقدرون مؤلفاته ويغدقون له فى العطاء كلما ظهر له مؤلف جديد » إذ أكرمه هؤلاء الحكام بصداقته لهم من جهة ، وإعجابهم بعلمه وأدبه من جهة أخرى .

ولم يعجب بكتاباته خاصة رجال السياسة والعلم والأدب والبلاغة والفلسفة فقط بل شاركهم عامة الناس كذلك . وربما كان السبب فى ذلك ما امتاز به الجاحظ من التندر والدعابة ، وما خلط فيها بين جد وهزل واستطراد وترويح عن القراء .

وقد عمر الجاحظ . ومات نحو ٩٦ عاما وكانت وفاته سنة ٢٥٥ هـ .

وهذه مقتطفات من رسالة « التربيع والتدوير » التي جمع فيها الجاحظ بين حسن الفكرة . وأناقة العبارة : قالها في هجاء معاصر له مغرور بنفسه اسمه « أحمد بن عبد الوهاب » كان ، كما وصفه الجاحظ « يعد أسماء الكتب ولا يفهم معانيها ، ويحسد العلماء من غير أن يتعلق منهم بسبب . وليس في يده من جميع الآداب إلا انتحال اسم الأدب .

وكان أحمد بن عبدالوهاب يخاشن الجاحظ ويطاوله ويحسده ، فرد عليه الجاحظ بهذا الهجاء الطريف الذي صاغه في صورة لم يعرف بها أحد قبل الجاحظ

النص

١ — « كانَ أحمدُ بنُ عبدِ الوهاب مُفْرط الْقِصَر ، وَيدَّعِي أَنَّه مُفرَطُ الطُّولِ ، وكان مُرَبعًا وَتحْسَبُه لِسعَةِ جُفْرَتِهِ[١] وَاسْتِفاضَةِ خاصِرَتِهِ مُدَوَّرًا ، وكان جَعْدَ الأطْرَافِ قَصِيرَ الأصَابِعِ ، وهو في ذَلِكَ يدَّعِي السَّباطة والرَّشاقة ، وَأَنَّه عَتِيق[٢] الْوَجْهِ أخمصُ البَطْنِ ، مُعْتَدِلَ الْقامَةِ تامَّ الْعظْمِ ، وكان طَوِيلَ الظَّهر قصيرَ عظمِ الْفَخِذِ ، وهو مع قِصَر عَظْمِ ساقِهِ يَدَّعِي أنّه طويلُ الْبَاد[٣] رَفيعُ الْعِمَاد[٤] ، عادِيُّ الْقَامَةِ عظيمُ الْهامَة ، قد أُعْطِيَ الْبَسْطَةَ في الجسم ، والسَّعة في الْعِلْم ، وكانَ كبيرَ السِّن متقادِمَ الميلاد ، وهو يَدَّعِي أنه معتدلُ الشَّبَاب حديثُ الميلاد » .

---

(١) جفرته : وسطه .
(٢) عتيق : كريم .
(٣) الباد : يقصد طويل القامة .
(٤) رفيع العماد : أعمدة الخيمة كناية عن الطول .

٢ — . . . . « وبعد – أبقاكَ اللهُ – فأنتَ في يدك قِياسٌ لا ينكسِرُ، وجوابٌ لا ينقطِعُ ، ولك حَدٌّ لا يُفَلُّ ، وَغَرْبٌ[٥] لا ينثنِي ، وهو قِياسك الَّذِي إِليه تُنسَبُ ، وَمَذهبك الَّذي إليه تَذهَب ، أن تقول : وما عليَّ أَن رآني النَّاسُ عريضاً ، وَأَكونَ في حُكمِهم غَليظاً ، وأنا عِند الله طويلٌ جميل ، وفي الحقيقةِ مَقدودٌ رَشيقٌ ، وقد عَلِموا – أبقاكَ الله – أن لك مع طُولِ البـاد راكِبًا طولَ الظهر جالِسًا ولكن بَيْنَهم فيك – إذا قُمتَ – اختلافٌ ، وَعليكَ لهم – إذا اضطَجَعتَ – مسائلُ ، ومن غريب ما أُعطِيتَ ، وبديعِ ما أُوتِيتَ أَنَّا لَمْ نَرَ مَقدُودًا[٦] واسِعَ الجُفرَةِ غَيرَك ، ولا رَشِيقًا مُستَفِيضَ الخاصِرَةِ سِوَاكَ ، فأنتَ المديدُ وأنتَ البَسِيطُ وأنت الطَّوِيلُ وأنت المُتَقَارِبُ[٧] ، فيا شِعراً جمعَ الأعاريضَ ويا شَخصًا جمعَ الاستدارَةَ والطُّولَ ، بل ما يَهُمُّكَ من أَقَاوِيلِهِمْ ، وَيَتَعَاظَمُكَ من اختلافِهِمْ ، والرَّاسِخُونَ في العِلم ، والنَّاطِقُونَ بالفَهم يَعلَمُونَ أن استِفاضَةَ عَرضِكَ قد أَدخَلَت الضَّيمَ عَلَى ارتفاعِ سَمكِكَ ، وأن ما ذَهَبَ منك عَرضاً قد استَغرَقَ ما ذهبَ منك طولاً . . . . »

---

(٥) غرب : حد السيف .
(٦) مقدودا : مشقوقا .
(٧) من البحور : التي يأتي الشعر على وزنها .

٣ — « وَلَوْ لَمْ يكُنْ لك إلّا أنَّا لا نَسْتطيع أن نقولَ في الْجُمْلَةِ وَتِشْدِ الْوَصْفِ وَالْمِدْحَةِ : هُوَ أَحْسَنُ مِنَ الْقَمرِ ، وَأَضْوَأُ من الشَّمْسِ وَأَبْهَى مِنَ الْغيْثِ ، وَأنَّا لا نَسْتَطيعُ أَنْ نقولَ في التَّفَارِيقِ كأنَّ عنقَه إبريقُ فِضّةٍ ، وكأنَّ قدَمه لسانُ حَيَّةٍ ، وكأنَّ عينَه ماويّةٌ[٨] وَكأنَّ بطْنَه قِبْطِيَّةٌ[٩] وكأنَّ لِسانَه وَرَقَة ، وَكأنَّ أنفَهُ حَدُّ سَيْفٍ وَكأنَّ حاجِبَهُ خَطٌّ بِقَلمٍ ، وكأنَّ لَوْنَه الذَّهبُ ، وَكأنَّ عوارِضَه[١٠] الْبَرَدُ ، وَكأنَّ فاهُ خاتَمٌ ، وكأنَّ جَبِينَه هِلالٌ ، وَلَهُوَ أَطْهَرُ مِنَ الْماءِ ، وَأَرَقُّ طِباعًا من الْهَواء ، وَلَهُوَ أَمْضَى من السَّيْلِ ، وَأَهْدَى مِنَ النَّجْمِ ، لَكانَ في ذلكَ الْبُرْهانُ النَّيِّرِ وَالدَّليلُ البَيِّن ، وكيفَ لا يكونُ ذَلِكَ ، وأَنْتَ الْغايَةُ في كلِّ فَضْلٍ ، والنِّهايَةُ في كُلِّ شكْلٍ ، وَأمَّا قوْلُ الشَّاعر :

يَزِيدُكَ وَجْهُـه حُسْناً ... إذا ما زِدْتَه نَظَرا

... . فَإنّما ذلك مَعْنَى مَسْروقٌ مِنّي في وَصْفِكَ ، وَمَأْخُوذٌ من كُتُبِي في مَدْحِكَ ، ومن يَطْمَع في عَيْبِكَ ، بل من يَطْمَعُ في قَدْرِكَ ، وكَيْف وقَدْ أَصْبَحْتَ وما عَلَى أَظْهرِها خُودٌ[١١] إلا وَهِيَ

(٨) ماوية : لامعة كالمرآة .
(٩) قبطية : رقيقة ناعمة .
(١٠) العوارض : الأسنان .
(١١) خود : الشابة الحسناء .

تَتَعَتَّرُ بِاسْمِهِ وَلا قِينَةٌ إلا وَهِيَ تُغَنِّى بِعِذْحِكَ وَلا فَتَاةٌ إلا وَهِيَ تَشْكُو تَبَارِيحَ[١٢] حُبِّك ، ولا مَحْجُوبَةٌ إلا وهى تَثْقُبَ الْخُروقَ لِمَمَرِّكَ ، ولا عَجُوزٌ إلا وَهِيَ تَدْعوا لَكَ ، ولا غيورٌ إلا وَقَدْ شَقِيَ بِكَ .... »

٤ — ..... « وَقَدْ عَلِمْنَا أَنَّ الْقَمَرَ هُوَ الَّذِي يُضْرَبُ به الأمثال وَيُشَبَّهُ بِهِ أَهْلُ الجمال وَمَعَ ذَلِكَ يَبْدُو ضَئِيلاً نِضْوًا[١٣] ، وَمُعْوَجًا سَخْتًا[١٤] وَأَنْتَ أَبدًا قَمَرُ بَدْرٍ فخمٌ غمر ، ثم هُوَ مع ذلكَ يحترقُ فى السِّرار ، وَيُتَشَاءَمُ منه فى الْمُحاق ، وَيكون نَحْسًا كما يكونُ سَعْدًا ، ويكونُ نفعاً كما يكونُ ضُرًّا ... وأَنْتَ دائِمُ اليُمْنِ ظاهِرُ السَّعادَةِ ، ثابِتُ الْكمالِ شائِعُ النَّفعِ ، تَكْسُو مِنْ عَرَّاه ، وَتُكِنُ[١٥] من أَشْحَبَهُ ، وَعَلَى أَنَّهُ قَدْ مَحَقَ حُسْنَهُ المحقُ ، وَشَانَهُ الْكَلَفُ ، وليسَ بِذِى توَقُّدٍ ولا اشْتِعالٍ ، وَلا خالِصَ الْبياضِ ، وَلا مُتَلأْلِئٍ ، ويملوه بَرَد[١٦] ويكسوه ظلُّ الأرضِ ، ثمَّ لا يعتريهِ ذلكَ إلا عِنْدَ كمالِه ، وَلَيْلَةَ فَخْرِهِ وَاحْتِفالِهِ ، وكثيراً ما يعتريهِ

(١٢) تباريح الحب : توهجه وشدته ·
(١٣) نضوا · هزيلا ·
(١٤) سخنا : ندا ضامرا ·
(١٥) تكن : تخفى ·
(١٦) برد : حب الغمام ينزل مع المطر ·

الصَّفَّار[١٧] من بُخارِ البحارِ ، وَأَنْتَ ظاهِرُ التمَامِ ، دائمُ الكمالِ ، سَلِيمُ الجوهَرِ ، كريمُ العنصر نَارِيُّ التَّوَقُّدِ ، هَوَائِيُّ الذهن ، دُرِّيُّ اللَّوْنِ ، رُوحانيُّ البَدَنِ ، عَلَى أَنَّ ضِيَاءَهُ مُسْتعارٌ مِن الشَّمْسِ ، وَضِياءَكَ عارِيَةٌ عِنْدَ جميعِ الخَلْقِ ، فَكَمْ بَيْنَ المُعِيرِ والمُسْتَعِيرِ والمُتَبَيِّنِ والمُتَحَيِّرِ ، وبين العالِمِ ومن لا حِسَّ فيه ، فلا زَالت الأرْضُ بك مُشْرِقَةً ، والدُّنيا معمورةً ، ومجالسُ الخير مأهولةً ، ونسيمُ الهواء طَيِّباً ، وترابُ الأرضِ عَبِقاً . . . . . »

ه — «يا قَمِيدَ القَلَاعِ كيْفَ أَمْسَيْتَ ، ويا قُوَّةَ الهَيُولا كَيْفَ أَصْبَحْتَ . . . زَعَمَ تَلَامِيذُكَ أَنَّكَ تَعْلَم : لِمَ كانَ الفَرَسُ لا طُحَالَ لهَا ، ولِمَ صَارَ البَعِيرُ لا مَرَارَةَ لَهُ ، ولِمَ كانت السَّمَكَةُ لا رِئَةَ لهَا . . . ولِمَ قِيلَ أَعَقُّ مِنْ ضَبٍّ وأَبَرُّ مِن هِرَّةٍ وهما جميعًا يأكُلَانِ أولادهُمَا . . . ولِمَ نَامَت الأرْنَبُ مَفْتُوحَةَ العَيْنَيْنِ ؟ ولِمَ أَكَلَ الذِّئْبُ صَاحِبَهُ إذا رَأَى بِهِ دَمًا ؟ . . . ولِمَ زَعَمْتَ أَنَّ عُمْرَ نُوحٍ أَطْوَلُ الأعْمَارِ مَعَ قَوْلِكَ : إِنَّ جَمِيعَ الأنبياءِ قَدْ حَذَّرَتْ مِنَ الدَّجَّالِ وأَنَّ الدَّجَّالَ إنسانٌ ؟ ! »

---

(١٧) الصفار : النرات بضعف ضوءه السحاب الرقيق .

التعليق

أولا : تعد هذه المقتبسات أجزاء متفرقة قليلة ، من رسالة متكاملة نادرة ممتدة عرضها لنا « الساسى » فى كتاب عنوانه « رسائل الجاحظ » وعنـــدما تقرؤها فى مصدرها تجد عديداً من المعانى المتعانقة التى ينتقل فيها الأديب من معنى إلى آخر انتقالا رفيقاً فى تسلسل وتماسك وفى هذه المقتبسات نجد :

١ — أن الفقرة الأولى تعتمد على المفارقة بين واقع احمد بن عبد الوهاب وحقيقته وبين مايظنه هو فى نفسه ، فهو قصير فى الحقيقة ولكنه يدعى الطول ، وهو مربع مدور[1] ولكنه يزعم السباطة والرشاقة ، وعلى هذا النحو يمضى الجاحظ إلى أن يستوفى المعنى .

٢ — وفى الفقرة الثانية يتجاوز الحكم عليه نابعاً من رأيه فى نفسه ومن واقعه إلى رأى الناس فيه ، والجاحظ فى ذلك يجذب الجماهير إليه فيتحدث بلسانهم ويعبر عن رأيهم فى أحمد بن عبد الوهاب ، ورأى أحمد بن عبد الوهاب فى نفسه ، ويضع الصواب فى جانبهم والتزوير ومجافاة الواقع فى جانب احمد بن عبد الوهاب وهو فى ذلك يستثير عواطف الجماهير ضده . فلأحمد بن عبد الوهاب قياس وحد وللناس قياس وحد ، وله مذهب يختلف عن مذهب الناس ، فهو عند الناس عريض غليظ واسع الجفرة مقدوداً فكيف به مكتملا ؟ ، بل هو قد جمع بين الاستدارة والطول والسمك ، ويختم هذا المعنى بفكرة طريفة عبر فيها عن تنازع طوله وعرضه ليقرر أنه ينمو عرضاً ولاينمو طولا « وأن ما ذهب منك عرضاً قد استغرق ما ذهب منك طولا » .

٣ — وفى هاتين الفقرتين يعرض معنى واحداً ، وإن كان بينهما خلاف فهو من جانب المدرك والشخص الذى يحكم أهو الجاحظ أم الناس؟ .

أما الفقرة الثالثة فيمر فيها الجاحظ مراً سريعاً على ملامحه الحسية ليبالغ فى جمالها مبالغة تثير التهكم اللاذع والسخرية المضحكة يتحول فيها الجمال ببراعة الجاحظ إلى قبح والمدح يمسخ ليكون الهجاء ، فهو ينظر إلى أعلاه وأسفله ووسطه ليبرز تفاريق عنقه وقدمه ، ولسانه ، وبطنه ، وملامح وجهه جزءاً جزءاً ، ثم ليعود فيحكم عليه كلا

(١) ومن هنا سمى الرسالة « رسالة التربيع والتدوير » .

قد كونته هذه الأحكام الجزئية ليقرر على سبيل السخرية الجامعة ، أنه الغاية فى كل فضل والنهاية فى كل شكل :

يزيدك وجهـــه حسناً　　　　إذا ما زدته نظـــراً ،

٤ — وفى الفقرة السابقة يعرض لعدة معان أو لعديد من الملامح . ولكنه هنا يصنع العكس يعرض لمعنى واحد يوازن فيه بين جمال القمر وبهائه ، وجمال أحمد بن عبد الوهاب وبهائه ، ويستوفى هذا المعنى استيفاء يثير إعجابنا ، معتمدا على المفارقة أيضاً مع المبالغـــة المزدية إلى السخرية اللاذعة المرة المضحكة وهنا يشرك مظاهر الطبيعة معه فى الحكم والإحساس ، فما مضى من الفقرات كان الحكم هو ابن عبدالوهاب أو الجاحظ ، أو الناس ، ولكنه هنا يدخل عنصراً رابعاً هو الطبيعة التى تقول ما يقول الجاحظ وترى ما يراه الناس جميعاً ، فلا زالت الأرض بك مشرقة . والدنيا معمورة ، ومجالس الخير مأهولة ونسيم الهواء طيباً وتراب الأرض عبقاً ، .

٥ — وما مضى كله كان الحكم فيه على ظاهر احمد بن عبد الوهاب من خلال ما ترى العين . ويتصور النظر . فحدد هذه الأبعاد طولا وعرضاً ودقة وضخامة . ونوراً وارتفاعا أو انخفاضاً إلى غير ذلك مما تدركه العين ويحده الحس . ولكنه هنا يترك المحسوس إلى المعنوى أو ما يدرك بالمعين إلا ما يتحدى الفكر ويحتاج إلى العلم التجريبي والنظـــر العقلى لا الحسى . فإذا كانت السمكة من غير رئة حقيقة واستعاضت عن ذلك بخياشيمها فهل الضب من غير طحال ، والبعير لامرارة له ؟ أمر يحتاج إلى التشريح ! !

ولم وصف الضب بالعقوق . ولم توصف به الهرة مع أن كليهما يأكلان أولادهما سؤال يحتاج إلى علة يستريح لها العقل !!

وهل تنام الأرنب مفتوحة العين حقيقة أم هل لها عين داخلية وأخرى خارجية؟!
وهل يأكل الذئب صاحبه إذا رأى بهدمأ؟ أو أن ذلك يحتاج إلى الملاحظة والاستقراء ..

وكيف تجمع كلمة المؤرخين ورجال الدين على أن عمر نوح أطول الأعمار وهناك الدجال الذى حذرت منه جميع الأديان من قبل نوح ومن بعد نوح ؟

إن بالرسالة طرافة نادرة . وعلماً متنوعا وفكراً غزيراً . فيها الأدب والفلسفة ، وفيها النظر والتجربة والاستقراء ، وفيها من قبل ومن بعد شخصية الجاحظ الفكهة المميزة بطابعها الذى لا يشاركه فيه عالم أو باحث أو أديب .

ثانياً :

١ — فى هذه الرسالة معارض لثقافات الجاحظ المتنوعة فى الجدل والفلسفة وعلم الكلام ، والفقه والشريعة والسير والتاريخ ، والكيمياء والطبيعة والتشريح والشعر والنثر ، والبلاغة والبيان ، وفيها آثار من الثقافات : العربية والفارسية والهندية ، إنها تكشف عن رحابة أفق هذا الكاتب الكبير وتجعله إماماً فى الفلسفة والمنطق ، والأدب واللغة ، والعلم والمعرفة وتؤهله لأن يكون نادرة عصره ، وفخراً للعرب .

٢ — ومن براعة الجاحظ فى سخريته وتهكمه ، أو من سخريته وتهكمه البارع أنه يقدم أحمد بن عبد الوهاب فى صدر رسالته طولا وعرضاً وتربيعاً وتدويراً ، وبعبارة أخرى يشوهه حساً . فيصل فى ذلك إلى أرقى ما وصل إليه أهل الفن من راسمى « الكاريكاتير » الذين يعمدون إلى خاصة فى الإنسان أو الحيوان فيبالغون فيها أى مبالغة ليخلعوا على فنهم طرافة تجذب النفس وتثير الفكر وتروح عن القلوب وتؤثر فيها بما لها من دلالات رائعة ، ومهما حاول الفن الحديث بالتخطيط والتلوين فلن يستطيع أن يعرض هذا العمق الكبير فى الشكل والجوهر على النحو الذى وصل إليه الجاحظ .

إن الجاحظ يعرض الظاهر أولا لتتضح الصورة أمامنا ، ثم ينتقل من الظاهر إلى الباطن ليكون الانتقال إليه رقيقاً على النفس والعقل معاً .. أنه يشوه جسم أحمد بن عبد الوهاب ، وكأنى به لم يقتنع بذلك فأخذ يشوه عقله وفكره أيضاً .

وبذلك نعد الجاحظ إماماً فى الهجاء ، ولكن ليس على هذا النحو المنحط المبتذل الذى سمعناه من ثالوث العصر الأموى « الأخطل وجرير والفرزدق » ولكن على نحو عباسى حضارى كأنه يناقش فيه مسألة علمية دقيقة ويحشد لها من معارفه بل ويحشد لها الجمهور الذى يستمع إليها ، فينثر على مسامعهم علماً وفلسفة وأدباً ، ومبالغة فى المديح الساخر ، ليقودنا إلى مشاركته مشاعره الساخرة بأحمد بن عبد الوهاب !!

٣ — والرسالة إذن ذات موضوع يهتم به الجاحظ قبل أن تكون ذات أسلوب فإذا تأملناها من الناحية الأسلوبية ألفيناها ذات أسلوب يمتاز به الجاحظ

ونجده من هذه الوجهة إماماً من أئمة الأساليب ، وأنه قد استحق بجدارة أن يكون صاحب مدرسة فنية معروفة . . « بمدرسة الجاحظ » ومن أهم سمات هذه المدرسة كما تتراءى فى هذه الرسالة :

— الأسلوب السهل الممتنع الذى تتعانق فيه الألفاظ والمعانى بحيث لانحس تكلفاً لفظياً . فكل لفظ يقع موقعه الملائم دون تكلف أو اضطراب ، وكل معنى مستقر فى موضعه على نحو من التسلسل وحسن العرض.

— يعتمد الجاحظ فى أسلوبه على المفارقات والتقابلات التى أخذت ألواناً متعددة فبين الفقرة والفقرة تقابل. فهذه تصف الجسم وتلك تصف العقل . وهذه أسئلة تقدم وتلك حقائق تقرر ، وهذا أسلوب خبرى وذلك أسلوب إنشائى ، وهكذا مما يشيع بين فقرة وفقرة .

وهناك تقابل آخر بين الجملة والجملة ، تقابل حقق لها التماسك من جهة، ووضوح المعنى من جهة أخرى .

وفى الرسالة تلوين عقلى وآخر صوتى ، وغير ذلك من أساليب المفارقات التى استغلها الجاحظ إلى أبعد مدى .

— التكرار الموسيقى : أو موسيقا التوازن بين الجمل ، فالجاحظ يقطع عبارته ويراوج بين جملها ، وألفاظها بحيث تظهرلها موسيقى رتيبة تستريح لها الأذن وتطمئن لها النفس لتجد المعانى طريقها إلى العقول .

ولا يظهر ذلك فى فقرة دون فقرة بل يكاد أن يكون أمراً شائعاً فى هذه الرسالة إننا لا نقصد موسيقا الحرف أو الحروف على الصورة التى تحقق السجع أو الجناس بل نقصد الكلمة كلها وإن اختلفت حروفها كلها أوأغلبها . فإذا انضم إلى هذه الظاهرة جناس أوسجع زاد العبارة تنغيماً موسيقياً رائعاً متلوناً .

ومن الطريف أنك لاتجد ذلك فى فقرة دون فقرة من هذه الرسالة بل ذلك سمة عامة فيها جميعاً .

فإذا تأملت وجدته يبنى الجمل على أساس الكلمتين ، أو الثلاث ، أو الأربع ،

فالكلمتان مثل : « ضئيلا نضواً ومعوجا ، شخناً » — والثلاث مثل : « تكسو من عراه ، وتسكن من أشحبه » .

والأربع مثل : الذى يضرب به الأمثال ، ويشبه به أهل الجمال .

والكلمات الثلاث بعدها مزاوجات مثل : وأنت دائم اليمن : ظاهر السعادة ، ثابت الكمال ، شائع النفع . ومثل : وأنت ظاهر التمام : دائم الكمال ، سليم الجوهر ، كريم العنصر .

وغير ذلك من مظاهر التمكن الكبير من التلاعب بموسيقا الكلمة . ومن هذا كله تحس أنه ينساب فى تعبيره انسياب الماء الهادئ فى جداوله ..

إنه الجاحظ الذى قال عنه ابن العميد « إن الناس عيال عليه فى البلاغة والفصاحة واللسن والمعارضة » ، وقال عن كتبه « كتب الجاحظ تعلم العقل أولا والأدب ثانياً » . (*)

(*) دكتور سعد شلبى

من حكم الكلام

لابن عبد القدوس

تمهيد . صالح بن عبد القدوس أحد شعراء العصر العباسي ، وكان من حكماء الشعراء في عصره . ومن النوابغ في البلاغة والوعظ والأدب ، وقد حقد عليه أعداؤه واتهموه لدى المهدى الخليفة العباسى بالزندقة والالحاد فضربه بالسيف فقطعه نصفين وعلقه فى بغداد . ولصالح بن عبد القدوس قصيدة مشهورة فى عالم الأدب تعرف بالقصيدة الزينبية ، وقد اخترنا منها هذه الأبيات التي تتناول بعض الحكم المفيدة والنصائح الغالية التي تعين الإنسان وتساعده على أمور حياته وفهم حقيقة الناس ونفوسهم وطباعهم وما يزين الإنسان وما يشينه .

النص

وابْدَأْ عَدُوَّكَ بِالتَّحِيةِ وَلْتَكُنْ ... مِنْهُ زَمَانَكَ خَائِفاً تَتَرَقَّبُ

واحْذَرْهُ إِنْ لاقَيْتَهُ مُتَبَسِّماً ... فَاللَّيْثُ يَبْدُو نَابُه إِذْ يَغْضَبُ

وَإِذَا الصَّدِيقُ لَقِيتَه مُتَمَلِّقاً (١) ... فَهُوَ العَدُوُّ وَحَقُّه يُتَجَنَّبُ

لاَ خَيْرَ فِي وُدِّ امْرِئٍ مُتَمَلِّقٍ ... حُلْوِ اللِّسَانِ وَقَلْبُهُ يَتَلَهَّبُ

يُعْطِيكَ مِنْ طَرَفِ اللِّسَانِ حَلاوَةً ... وَيَرُوغُ مِنْكَ كَمَا يَرُوغُ الثَّعْلَبُ

وَصِلِ الكِرَامَ وَإِنْ رَمَوْكَ بِجَفْوَةٍ ... فَالصَّفْحُ عَنْهُمْ وَالتَّجَاوُزُ أَصْوَبُ

واخْتَرْ قَرِينَكَ وَاصْطَفِيهِ تَفَاخُراً ... إِنَّ القَرِينَ إِلَى المُقَارِنِ يُنْسَبُ

واخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلأَقَارِبِ كُلِّهِمْ ... بِتَذَلُّلٍ وَاسْمَحْ لَهُمْ إِنْ أَذْنَبُوا

---

(١) متملق : يقول بلسانه ما ليس فى قلبه .

وَدَعِ الكَذُوبَ فَلا يَكُنْ لَكَ صَاحِبًا ... إنَّ الكَذُوبَ يَشِينُ حُرًّا يَصْحَبُ

وَذَرِ الكَلامَ إذَا نَطَقْتَ وَلا تَكُنْ ... ثَرْثَارَةً فِي كُلِّ نَادٍ تَخْطُبُ

واحْفَظْ لِسَانَكَ واحْتَرِزْ مِنْ لَفْظِهِ ... فَالمَرْءُ يَسْلَمُ بِاللِّسَانِ وَيُعْطَبُ

والسِّرَّ فَاكْتُمْهُ وَلا تَنْطِقْ بِهِ ... إنَّ الزُّجَاجَةَ كَسْرُهَا لا يُشْعَبُ

وَكَذَاكَ سِرُّ المَرْءِ إنْ لَمْ يَطْوِهِ ... نَشَرَتْهُ أَلْسِنَةٌ تَزِيدُ وَتَكْذِبُ

لا تَحْرِصَنْ فَالحِرْصُ لَيْسَ بِزَائِدٍ ... فِي الرِّزْقِ بَلْ يُشْقِي الحَرِيصَ وَيُتْعِبُ

وَارْعَ الأَمَانَةَ وَالخِيَانَةَ فَاجْتَنِبْ ... وَاعْدِلْ وَلا تَظْلِمْ يَطِبْ لَكَ مَكْسَبُ

وَإذَا أَصَابَكَ نَكْبَةٌ فَاصْبِرْ لَهَا ... مَنْ ذَا رَأَيْتَ مُسَلَّمًا لا يُنْكَبُ

وَإذَا رُمِيتَ مِنَ الزَّمَانِ بِرِيبَةٍ ... أَوْ نَالَكَ الأَمْرُ الأَشَقُّ الأَصْعَبُ

فَاضْرَعْ لِرَبِّكَ إنَّهُ أَدْنَى لِمَنْ ... يَدْعُوهُ مِنْ حَبْلِ الوَرِيدِ وَأَقْرَبُ

واحْذَرْ مُصَاحَبَةَ اللَّئِيمِ فَإنَّهُ ... يُعْدِي كَمَا يُعْدِي الصَّحِيحَ الأَجْرَبُ

واحْذَرْ مِنَ المَظْلُومِ سَهْمًا صَائِبًا ... وَاعْلَمْ بِأَنَّ دُعَاءَهُ لا يُحْجَبُ

وَلَقَدْ نَصَحْتُكَ إنْ قَبِلْتَ نَصِيحَتِي ... وَالنُّصْحُ أَغْلَى مَا يُبَاعُ وَيُوهَبُ

التعليق

في هذه الأبيات يقدم الشاعر بعض النصائح والحكم القيمة التي تساعد الإنسان على فهم الناس والتعامل معهم فهو ينصحنا بأن نبدأ عدونا بالتحية حتى ولو كنا نخشى هذا العدو ونخافه فالتحية تزيل الجفوة وتقرب النفوس . وهو يحذرنا من أن نأخذ الأمور بظاهرها فربما تخفي الابتسامة على الشفاه ما تخفيه النفس من شرور . وهو يحذرنا أيضاً من الإنسان المتملق أي الذي يقول بلسانه ما ليس في قلبه فهذه من شيمة

النفوس الضعيفة، ويشير الشاعر إلى حسن اختيار الصديق أن يبتعد عن صحبة من يشينون قدره. ثم ينتقل بعد ذلك الشاعر إلى بيان ما ينبغى أن يراعيه الإنسان فى حديثه مع الآخرين فيجب أن يكون كلامه موزوناً يقدر لكل كلمة معناها وألا يكثر الإنسان من الكلام بدون داع وإذا أؤتمن على سر فعليه أن يحافظ عليه ولا يقوله لأحد حتى لاينتشر ويذيع أمره ثم يوصى الشاعر ببعض الخصال الكريمة مثل البعد عن الحرص الشديد ورعاية الأمة والعدل وإحقاق الحق والصبر على الشدائد والتضرع إلى الله عز وجل فى الشدة والضراء، وأخيراً يحذر الشاعر من مصاحبة اللئيم ومن الظلم فدعاء المظلوم مستجاب عند الله.

وهذه الأبيات كما يتضح منها عرضت هذه النصائح والحكم فى أسلوب سهل مستساغ مقبول محبب إلى النفس فى أسلوب عذب اختيرت ألفاظه بعناية وبعد فيها الشاعر عن الغريب من الألفاظ أو ما يستغلق فهمه. وهو فى النهاية يختم أشعاره بعبارة جميلة مفادها أن النصح هو أغلى ما يمكن أن يقدمه الإنسان.

مقـدمة مـديح

لمسلم بن الوليد

تمهيـــد :

شاعر عباسى ، ولد بالـكوفة حوالى سنة ١٤٠ هجرية ، وفى شعره ما يدل على وقاره واتزانه فى كهولته . وعلى لهوه وحبه فى صباه . وقد تفتحت مواهبه منذ نشأته فأغراه ذلك بالانتقال من الـكوفة إلى البصرة حيث تروج بضاعة الشعر ويحظى الشعراء بجوائز الخلفاء والوزراء والأمراء وقادة الجند ، ويقال إنه كان يربح فى العام ألف ألف درهم .

وقد مدح الرشيد فلمع اسمه ، وتوثقت الصلات بينه وبين البرامكة . . .

ويلقب مسلم بن الوليد « بصريع الغوانى » ، ويعللون ذلك بأنه مدح الرشيد بقصيدة رائعة مطلعها :

هل العيش إلا أن أروح مع الصبا   وأغدو صريع الراح والأعين النجل

فقال له : « أنت صريع الغوانى » وفى أخباره أن الرشيد وصله مرة بمائتى ألف درهم . وأشاد بانتصاراته على الروم . . وارتفع مـــكانه حتى تولى جرجان . وتوفى سنة ٢٠٨ هجرية .

وكان يجهد نفسه فى صنعة الشعر ، و . . . ويتزود من قديمه وحديثه وعرف ألوان البديع وزخرف القول من جناس ومشاكلة . وتورية وسجع .. وجعل ذلك أساساً لشعره .

ولم يمنح موضوعاً عناية قدر عنايته بالمديح

وإليك نموذجاً يلقى الضوء على مدى هذه العناية :

النص

أَدِيرِى عَلَىَّ الرَّاحَ سَاقِيَةَ الْخَمْرِ (١)
وَلَا تَسْأَلِينِى وَاسْأَلِى الْكَأْسَ عَنْ أَمْرِى
كَأَنَّكِ بِى قَدْ أَظْهَرَتْ مُضْمَرَ الْحَشَا (٢)
لَكِ الْكَأْسُ حَتَّى أَطْلَعَتْكِ عَلَى سِرِّى
وَقَدْ كُنْتُ أَقْلِى (٣) الرَّاحَ أَنْ يَسْتَفِزَّنِى
فَتَنْطِقَ كَأْسٌ عَنْ لِسَانِى وَلَا أَدْرِى
وَلَكِنَّنِى أَعْطَيْتُ مِقْوَدِى الصِّبَا
فَقَادَ بَنَاتِ اللَّهْوِ مَخْلُوعَةَ الْعُذْرِ (٤)
إِذَا شِئْتُ غَادَانِى (٥) صَبُوحٌ مِنَ الْهَوَى
وَإِنْ شِئْتُ مَاسَانِى غَبُوقٌ مِنَ الْخَمْرِ
ذَهَبْتُ وَلَمْ أُحْدِدْ (٦) بِعَيْنِى نَظْرَةً
وَأَيْقَنْتُ أَنَّ الْعَيْنَ هَاتِكَةٌ سِتْرِى

---

(١) الراح : الخمر .
(٢) الحشا : يقصد القلب [illegible] مضمر الحشا : ما خفى فى القلب .
(٣) أقلى : [illegible] ، يستفزنى : يستخفنى لذهاب وعيى
(٤) العذر : جمع عذار [illegible] اللجام ، وخلع عذاره [illegible] على هواه .
(٥) غادانى : [illegible] ، الصبوح : [illegible] صباحا ، الغبوق : الشرب مساء
(٦) أحدد : انظر بحدة ، هاتكة ستري : يريد كاشفة أمرى .

جَعَلنَا عَلامَاتِ الْمَوَدَّةِ بَيْنَنَا

مَصَايِدَ لَحْظٍ(٧) هُنَّ أَخْفَى مِنَ السِّحْرِ

فَأَعْرِفُ مِنهَا الْوَصْلَ فِي لِينِ طَرْفِهَا

وَأَعْرِفُ مِنهَا الهجرَ فِي النَّظَرِ الشَّزْرِ(٨)

وَفي كُلِّ يَوْمٍ خَشْيَةٌ مِنْ صُدودِهَا(٩)

أَبِيتُ عَلَى ذَنْبٍ ، وَأَغْدو عَلَى عُذرِ

وَمُلْتَطِمِ الأَمْوَاجِ يَرْمِي عُبَابُهُ(١٠)

بِجَرْجَرَةِ الآذِيِّ لِلْعِبْرِ فَالْعِبْرِ

مُطَعَّمَةٍ(١١) حِيتَانُهُ مَا يُغِبُّهَا

مَا كُلُّ زادٍ مِن غَرِيقٍ ومِن كسْرِ

إِذا اعْتَنَقَتْ(١٢) فيه الْجَنُوبُ تَكَفَّأَتْ

جَوَارِيهِ أَوْ قامت به الرِّيحُ لا تَجْرِي

---

(٧) مصايد اللحظ : المراد : غمزات العين •

(٨) النظر الشزر : يكون بجانب العين •

(٩) خشية : خوف ، أبيت على ذنب : تتهمنى بذنب لم أفعله ، أغدو على عذر : أسارع الى الاعتذار اليها •

(١٠) عبابه : موجه ، جرجره الآذى : صوت الموج ، العبر : حافة النهر •

(١١) مطعمة : شبعة ، ما يغبها : ما ينقطع عنها ، كسر : المراد كسر سفينة •

(١٢) اعتنقت : اضطربت ، الجنوب : ريح تهب من جهة الجنوب ، تكفأت : انقلبت ، الجوارى : السفن •

كأنَّ مدبَّ الريح فى جَنَبَاتِهَا
مَدَبُّ الصَّبَا[١٣] بَيْنَ الوعاثِ مِن العُفْر
تَجَافَى[١٤] بِهَا النُّوتِى حَتَّى كَأَنَّمَا
يَسِيرُ من الإشفَاقُ فى جَبَلٍ وَعْر
تَخَلَّجَ[١٥] عَنْ وَجْهِ الحبَاَبِ كَمَا انْثَنَتْ
مُخَبَّأةٌ مِنْ كِسْرِ سِتْرٍ إلَى سِتْر
فَحَامَتْ[١٦] قَلِيلاً ثُمَّ مَرَّت كَأَنَّهَا
عُقَابُ تَدَلَّت مِنْ هَوَاءٍ عَلَى وَكر
أَنافَ[١٧] بِهَادِيهَا وَمَدَّ زِمامَهَا
شَدِيدُ عِلاجِ الكَفِّ مُعْتَمِلُ الظَّهْر
إذا ما عَصَتْ أَرْخَى الجَرِيرَ[١٨] لِرَأْسِهَا
فَمَلَّكَهَا عِصْيَانَهَا وَهْىَ لا تَدْرِى

---

(١٣) الصبا : ريح تهب من جهة الشرق ، الوعاث : الرمال اللينة ، العفر : جمع أعفر وهو الكثيب الأحمر .

(١٤) تجافى : تنحى (يقصد تنحى عن الحجارة التى تحت الماء) الاشفاق : الخوف .

(١٥) تخلج : تنحى . الحباب : الموج ، مخبأة : يقصد جارية .

(١٦) حامت : استدارت ، العقاب : طائر جارح ، الوكر : عش الطائر

(١٧) أناف بهاديها : أشرف بعنق السفينة ، المعتمل : العامل .

(١٨) الجرير : الحبل ، عصيانها : المراد : تمايلها فى الجرى .

كَأنَّ الصَّبَا تَحْكِي بِهَا حِينَ وَاجَهَتْ
نَسِيمَ الصَّبَا مَشْيَ الْعَرُوسِ إِلى الْخِدْرِ[١٩]
يَمِمنَا بِهَا لَيْلَ التَّمَامِ[٢٠] لأرْبَعٍ
فَجَاءَتْ لِستٌّ قَدْ بَقِيْنَ مِن الشَّهْرِ
وَحَتَّى عَلاهَا الْمَوْجُ فى جَنَبَاتِهَا
بِأرْدِيَةٍ مِنْ نَسْجِ طُحْلُبِهِ[٢١] خُضْرِ
رَمَتْ بِالْكَرَى[٢٢] أهْوَالُهَا عَنْ عُيُونِهِمْ
فَبَاتَتْ أهَاوِيلُ الْبَشَرَى بِهِم تَسْرِى
تَؤُمُّ[٢٣] مَحَلَّ الرَّاغِبِينَ وَحَيْثُ لا
تُذَادُ إذا حَلَّتْ بِه أرحُلُ السَّفْرِ
رَكِبْنا إِلَيْهِ الْبَحْرَ فى مُؤْخراتِه[٢٤]
فَأَوْفَتْ بِنَا من بَعْدِ بَحْرٍ إِلى بَحرِ

---

(١٩) الخدر : ما تستتر به الفتاة من بيت ونحوه .

(٢) ليل التمـــام : الليلة الرابعة عشرة .. (استغرقت الرحلة عشرة ايام) .

(٢١) الطحلب : طبقة نباتية خضراء تعلو المـاء .

(٢٢) الكرى : النوم ، اهاويل : جمع أهوال ، والأهوال : جمع هول .

(٢٣) تؤم : تقصد ، تذاد : تمنع ، السفر : المسافرون .

(٢٤) مؤخراته : أواخر ركوبه .

لعلنا نلحظ طول المقدمة ، وأنها دارت على ثلاثة محاور :

الأول : كان حديثاً عن الخمر ، ورأى فيها كشفاً لسره ، ولكنه على الرغم من ذلك يطلب من الساقية أن تسقيه ، ثم لتعرف عنه بعد ذلك مايضمر من سر ، مهما حاول أن يخفى .

الثانى : وانتقل من المحور السابق فى سهولة ويسر إلى الغزل فيرى فى الحب ملاك أمره ، فإن كان صبوحه فى الحب ، فإن غبوقه فى الخمر ، وكلاهما حبيب إلى نفسه أثير عند هواه . .

ثم يتلطف مع محبوبته ، فنظر إليها فى هدوء ، ولحظها فى خفاء ، إنه يخشى صدودها ، ويتهالك فى مودتها ، فيحس أنه مذنب وهو برئ ، ويعتذر فى حين أنه لم يذنب ، وينام على ذكراها ، ويستيقظ على هواها ، ومن هنا « يبيت على ذنب ، ويغدو على عذر » .

الثالث : وإن كان الشاعر قد جعل الأبيات التسعة الأولى بين الخمر والغزل ، فإن بقية النص قد استقل بوصف رحلة بحرية شاقة ، ومغامرة خطرة فى سبيل الوصول إلى ممدوحه . إنه يركب سفينة تشق عباب نهر الفرات ، والأمواج فيه متلاطمة ، والريح هوجاء عاصفة ، فالخطر يهدده من كل جانب ، ومصير مروع ينتظره فى كل حين ، مصير يشاهده بين أفواه الحيتان التى تتلقف السفين وراكبيه ! !

وليت السفينة تمر سريعة بهذه الأخطار أو ليت الأخطار تمر بها على عجل ، ولكن الأمر على النقيض من ذلك ؛ إن ربانها يشق بها وعر الجبال هذا إذا أبطأت ، وإن هى أسرعت كانت العقاب الجارح ، عصية القياد . إن جذب زمامها فلن تنقاد ، وإن أرخى الزمام استعصت عليه ، وتمردت ، والخوف يتملك ركابها فى الحالتين .

ولم تكن هذه رحلة الساعة واليوم ، ولكنها رحلة الأيام الممتدة إلى عشرة أيام ، فيها النهار وفيها الليل . وفيهما الفزع الكبير الذى يذهب النوم . ويستقدم الأهوال . . ولا يخفى علينا مافى هذا الوصف من مبالغات هادفة . والدليل على مافيها من تكلف الصور غير الملائمة فى الأبيات ١٥ ، ١٨ ، ١٩ ، فإن الشبه العاطفى غير متوافر على الرغم من وجود الشبه المادى .

وفى نهاية المطاف يجد الملجأ الآمن فيأوى إليه، فيجد الأمل المنشود فيلتى بنفسه فى رحابه ويطمئن إلى جوده وكرمه الغامر .

— وجدير بنا أن نتساءل . . لماذا يسرف هؤلاء الشعراء من أمثال : مسلم بن الوليد وأبى تمام فى هذه المقدمات ؟ !

إنهم بذلك يوفون السامعين حقوقهم ، فليست القصيدة عملا فنياً بين المادح والممدوح فقط ، ولكن هناك رجال الحاشية الذين لا تهمهم هذه الصفات التى تخلع على الممدوح بحق أو بغير حق ، ولهم أثر فى تحديد منزلة الشاعر عند الأمير ، والعناصر الثلاثة فى مستوى السامعين : الخمر وأثرها ، والحبيب وكيف الوصول إليه ، ورحلة بحرية أقرب إلى المغامرة منها إلى سفر شاق يطيقه المسافرون .

— مع ذلك نجد الصلات وثيقة بين المقدمة والغرض الأصلى من القصيدة والأبيات الخمرية تشير إلى سر تكشفه الخمر، وينطق به لسانه ولا يدرى، فما هذا السر؟ إنه الحاجة والأمل اللذان ألجآه إلى الممدوح ليطلب منه العطاء .

وأبيات الغزل تحمل فى طياتها الخشوع ، والرقه ، والمودة ، والخشية ، وفيها النظرات الفاحصة ، الهادئة فى آن واحد . فلم ذلك ؟

لاشىء غير التودد إلى قلب الممدوح ، والكشف عن أمل المادح الذى يريد أن يصل إليه من غير إلحاح فى الطلب أو إزعاج الآخرين .

وأبيات البحر والسفين والأخطار ومافيها من إسراف وتهويل ، الغرض منها واضح . . إنه يقول للمدوح : ينبغى أن يكون الثواب على قدر المشقة .

* * *

— وفى هذه المقدمة بعض التطور الذى أصاب الشعر فى العصر العباسى ؛ فإذا كان شاعر الجاهلية وشاعر الإسلام وبنى أمية يحدثنا فى مقدماته عن رحلة الصحراء على النوق والجمال ، فإن « مسلم بن الوليد » قد طور ذلك إلى الحديث عن رحلة بحرية وسيلتها سفينة الماء لا مركبات الصحراء .

وأمثال هذه المقدمات كانت التمهيد الذى لفت عديداً من شعراء هذا العصر والعصور التالية إلى تناول الطبيعة وتأملها وعرضها بين يدى قصائدهم .

* * *

— إن الحياة فى العصر العباسى قد ازدادت تطوراً وانتقالا إلى طور معقد كثير التكاليف مبسوط الحاجات واللذات ، فازدادت قيمة المال . وأصبح هم جمهرة الناس السعى إليه بشتى الأساليب ، ولم يعد فى الدولة مكان لغير الأغنياء ، ومن الأمثال الشائعة فى عاصمة الخلافة «بغداد» ، المال المال وماسواه محال ، وأصبح حال الدنيا كما يقول شاعر بنى العباس :

تصلح للمـــوسر لا لامرئٍ   يبيت فى فقـــر وإفلاس

فعذرة إلى الشعراء أن اتخذوا من فنهم وسيلة إلى الوصول إلى الأموال .

* * *

— بقى أن ننظر إلى القصيدة نظرة فنية . وسوف نلحظ فيها :

أن الشاعر يختار الجيد من الألفاظ فى جزالة رائعة وتناسق كامل يصور به نفسه ، وعقله ، وخياله ، تناسق يفيد فيه مما قال القدماء فى وصف الصحراء والنوق والشيب متلفتاً إلى إبداع معاصريه فى هذه المجالات وخروجهم بها إلى وصف الخمر أو السفن فى طريقهم إلى من يمدحون .

لقد كان مسلم بن الوليد ينظم فى الحب والخمر ولكنه كان يبقى على نفسه ، ويحتفظ بالكثير من كرامته ، فى غزله لايمجن ولايفحش ، بل يقترب من أصحاب الهوى العذرى مع حرص على عرض المعانى النادرة والأخيلة المبتكرة ، ومع الخيال والمعانى لاينسى الموسيقا الضخمة الصاخبة وماترسل من رنين قوى مزاوجاً بين عناصر الشعر القديمة والجديدة ، مع حرص على ألوان من البديع تمتع العقول والأفئدة .

وبهذه الألوان البديعة التى وشى بها هذه المقدمة وبأمثالها التى يشيع فيها الخيال ، مع المقابلة والطباق ، يشد من أزرها اللفظ الجزل بهذه الألوان استحق أبو مسلم بن الوليد أن يكون أستاذاً لأبى تمام رافع لواء المحسنات فى الأدب العربى فى العصر العباسى ، ورائد العديد من الشعراء فيما جاء بعده من عصور(*) .

(*) دكتور سعد شلبى

في مدح المتوكل

[للبحتري]

تمهيد : البحتري هو أبو عبادة بن الوليد بن عبيد الطائي. ولد بمنبج سنة ٢٠٦ هـ ومات سنة ٢٨٤ هـ ويمتاز شعره برقة الأسلوب. ـسن الخيال وإجادة المدح والوصف والعتاب [illegible]

لِي حَبِيبٌ قَدْ لَجَّ فِي الهَجْرِ جِدًّا   وَأَعَادَ الصُّدُودَ مِنْهُ وَأَبْدَا
ذُو فُنُونٍ يُرِيكَ فِي كُلِّ يَوْمٍ   خُلُقًا مِنْ جَفَائِهِ مُسْتَجِدًّا
يَتَأَبَّى مِنْعًا وَيُنْعِمُ إِسْعَا   فًا، وَيَدْنُو وَصْلًا، وَيَبْعُدُ صَدًّا
أَغْتَدِي رَاضِيًا وَقَدْ بِتُّ غَضْبَا   نَ وَأُمْسِي مَوْلًى(١)، وَأُصْبِحُ عَبْدَا
وَبِنَفْسِي، أَفْدِي عَلَى كُلِّ حَالٍ   شَادِنًا(٢) لَوْ يُمَسُّ بِالحُسْنِ أَعْدَى
مَرَّ بِي خَالِيًا فَأَطْمَعَ فِي الوَصْـ   ـلِ وَعَرَّضْتُ بِالسَّلَامِ فَرَدَّا
وَثَنَى خَدَّهُ إِلَيَّ عَلَى خَوْ   فٍ فَقَبَّلْتُ جُلَّنَارًا(٣) وَوَرْدَا
سَيِّدِي أَنْتَ إِنَّمَا تَعَرَّضْتُ ظُلْمًا   فَأُجَازَى بِهِ فَلَا خُنْتُ عَهْدَا
رِقَّ لِي مِنْ مَدَامِعٍ لَيْسَ تَرْقَا(٤)   وَارْثِ لِي مِنْ جَوَانِحٍ لَيْسَ تَهْدَا

---

(١) المولى هنا بمعنى السيد .
(٢) الشادن : ولد الظبية ، ويقصد محبوبة ، أعدى : أصيب وهو يريد أن عدوى الحسن تنتقل الى من يمسه .
(٣) الجلنار : زهر الرمان .
(٤) ترقا : تجف وتنقطع .

أترانى مُستبدلا بِكَ مَا عشـ ـتُ بَدِيلا وَوَاجِدًا مِنْك بُدًّا ؟
حاشَ لِلّه أنتَ أفترُ ألحَا ظًا وأحْلَى شَكْلاً وأحسَن قدًّا
خَلَق الله « جَعْفرا » قيم الدُّنيـا سَدَادًا وقيم[5] الدِّين رُشْدَا
أظْهرَ العَدْلَ فاسْتَنارَتْ بِهِ الأرْ ضُ وَعَمّ البِلادَ : غَوْرًا[6] وَنجْدَا
وَحَكى القطْر، بَلْ أَبرَّ[7] علَى القطـ ـرِ بِكَفٍّ عَلَى البَرِيَّةِ تَندَى
هُوَ بَحْرُ السَّماحِ والجُودِ فازْدَدْ مِنْهُ قُرْبًا تَزْدَدْ مِنَ الفَقْرِ بُعْدًا
يَا ثِمَالَ[8] الدُّنيَا عَطاءً وَبَذْلاً وَجَمَالَ الدُّنيَا سَنَاءً وَمَجْـدَا
بِكَ نَسْتَعْتِبُ[9] اللّيَالِي وَنَسْتَعْـ ـدِي عَلَى دَهْرِنَا المُسِيءِ فنعدَى
كلَّمَا قُلتُ أطْلَق الشُّكْر رِقِّى رَجَّعَتْنِي لَهُ أيَادِيهِ عَبْدَا
فَابْقَ عُمْرَ الزَّمَانَ حَتَّى نُؤَدِّى شُكْرَ إِحْسَانِكَ الّذِى لا يُؤَدَّى

التعليق

« البحترى موسيقار الشعر العربى » عبارة لصيقة بقصائد البحترى « أبو عبادة الوليد بن عبادة البحترى » [٢٠٦ هـ] وهذه القصيدة التى بين يديك تجد فيها النغم الشعرى فى كل ثنية فيها . قد تفتقد فلسفة للشاعر فى قصيدته : وقد لا تجد — وأنت

---

(٥) القيم : المستقيم .
(٦) الغور : ما انحدر الى الأرض ، النجد : ما ارتفع من الارض .
(٧) أبر : زاد ، القطر : المطر .
(٨) الثمال : الملجأ .
(٩) نستعتب : نطلب العتبى أى الرضا ، نستعدى : نستعين .

على صواب — عمق المعنى وروعة الفكرة ، ولكنك ستجد بناء موسيقياً يتموج فى غزله التقليدى والذى تجد مراماته الموسيقية والنغمية فى تكرار حروف بعينها !

فمثلا : حرف الجيم تجده فى « لج » ، « الهجر » ، « جدا » وحرف الدال تجده فى « قد » ، « أجدا » ، « أعاد » ، « الصدود » ، « أبدا » فى بيت واحد تكررت الدال ست مرات .

ثم تطالعك المدات التى تعطى تناغماً فى أحبال موسيقية ممتدة إلى «حبيب» ، « أعاد» ، « الصدود » ، « أبدا » ، « جدا » .

وتجد هذا الموسيقار الذى يجيد استخراج روائع النغم من مكانه حتى يلجأ إلى نظام المقابلات ومايضفيه من إيقاعات موسيقية ، تجده مثلا فى يتأبى منعاً ، وينعم إسعافا ، وتجده مثلا فى يدنو وصلا ، ويبعد صداً ، وتجده مثلا فى أغتدى راضياً — بت غضبان ، وتجده فى أمسى ، مولى — أصبح عبداً .

كما تجد قدرته على إقامة سلم نغمى هابط صاعد فى توقعات الحركة والسكون التى يوائم بعضها بعضاً فى قوله .

رقّ لى من مدامع ليس ترقا وارث لى من جوانح ليس تهدا

حاول أن تقرأ البيت بصوت مسموع لتحظى بتلك التوقعات التى حدثناك عنها .

نحن معك فى حديثه الغزلى بأنه كما يقول النقاد العرب فى مثله « ليس وراءه كبير معنى » فالحبيب يهجر ثم يصل والشاعر حائر فى الحالين . ومع ذلك فهو يعطيك بديلا عما افتقدته ، هو هذه الدفقات الموسيقية كما فى هذا الاستفهام العاتب ، تجد الحروف « التاء » ، « الباء » ، «النون» تتوالى فى نظام موسيقى يتناغم مع مدات الكلمات فى قوله :

أترانى مستبدل بك ما عشـ ـت بديلا وواجدا منك بدا

ومثله فى البيت الذى يليه حيث يسيطر عليه نظام التقسيمات الداخلية مع التركيز على حروف بعينها « الحاء واللام » :

حاش لله أنت أفتن ألحا ظا وأحلى شكلا وأحسن قدا!

أما المدح فإننا معك فى أن معانيه مستهلكة فالمتوكل « جعفر بن المعتصم بن الرشيد ، عاشر خلفاء بنى العباس » « ٢٠٦ — ٢٠٧ » بحر فى الكرم ، وقد أظهر العدل فاستنارت به الأرض ، ولكن البحترى وقد أعوزه المعنى فإنه يلجأ إلى قيثارته على نفسها يشيع فينا خدراً وتهويماً ، فنجد التقابل بين « غوراً — نجداً ، « قرباً — بعداً » « أطلق — رجعتى » .

وتظل القضية معلقة . هل تستطيع براعة الشاعر الموسيقية أن تقوم بديلا عن المضمون ومايجب أن يتوافر له من خصوبة فكرية ورؤية شعرية ذات تكثيف خاص ؟

إن قصيدة «البحترى» قصيدة مفتوحة تبين عن نفسها لبساطة نفسها والشعر يمتاح من نهر آخر غير هذا الوضوح السهل الرخيص .

من قصيدة البحترى فى إيوان كسرى

صُنْتُ نَفْسِي عَمَّا يُدَنِّسُ نَفْسِى ... وتَرَفَّعْتُ عَنْ جَدَا كلِّ جِبْسِ (١)
وتَمَاسَكْتُ حِينَ زَعْزَعَنِي الدَّهْرُ الْتِمَاسًا مِنْهُ لِتَعْسِي وَنُكْسِي (٢)
بُلَغٌ (٣) مِنْ صُبَابَةِ الْعَيْشِ عِنْدِي ... طَفَّفَتْهَا الأيامُ تطفيفَ بَخْسِ
وَبَعِيدٌ مَا بَيْنَ وَارِدِ رِفْهٍ (٤) ... عَلَلٍ شُرْبُهُ وَوَارِدِ خِمْسِ
وكأَنَّ الزَّمَانَ أَصْبَحَ مَحْمُو ... لاً هَوَاهُ مَعَ الأخسِّ الأخَسِّ
واشْتِرَائِي العِرَاقَ خُطَّةَ غَبْنٍ ... بَعْدَ بَيْعِي الشَّآمَ بَيْعَةَ وَكْسِ
وَلَقَدْ رَابَنِي نُبُوُّ ابنِ عَمِّي ... بَعْدَ لِينٍ مِنْ جَانِبَيْهِ وأُنْسِ
وإذَا مَا جُفِيتُ كُنْتُ حَرِيًّا ... أَنْ أُرَى غَيْرَ مُصْبِحٍ حَيْثُ أُمْسِي
حَضَرَتْ رَحْلِيَ الهُمُومُ فَوَجَّهْـ ... ـتُ إِلَى أَبْيَضِ المَدَائِنِ عَنْسِي (٥)
أَتَسَلَّى عَنِ الهُمُومِ وآسَى ... لِمَحَلٍّ مِنْ آلِ سَاسَانَ دَرْسِ
ذَكَّرَتْنِيهِمُ الخُطُوبُ التَّوالِي ... وَلَقَدْ تُذْكِرُ الخُطُوبُ وتُنْسِي

---

(١) الجبس : الدنىء ، الجدا : العطاء .
(٢) النكس : عود المريض الى مرضه .
(٣) البلغ : ما يكفى العيش ، الصبابة : بقية الشىء ، التطفيف : النقص .
(٤) رفه : من يشرب متى شاء ، العلل : الشرب الثانى ، وارد خمس : من يشرب مرة كل أربعة أيام .
(٥) العنس : الناقة .

وَهُمو خافِضونَ[٦] في ظِلِّ عالٍ ... مُشرِفٍ يَحسُرُ العُيونَ وِيَخسى

حِلَلٌ[٧] لَم تَكُنْ كَأَطلالِ سُعْدَى ... في قِفارٍ مِنَ البَسابِسِ مُلْسِ

وَمَساعٍ[٨] لَوْلا المُحاباةَ مِني ... لَم تُطِقها مَسعاةَ عَنْسٍ وَعَبْسِ

نَقَلَ الدَهرُ عَهدَهُنَّ مِنَ الجِدَّ ... ةِ حَتَّى غَدَوْنَ أَنضاءَ لِبْسِ

فَكَأَنَّ الجِرْمازَ[٩] مِنْ عَدَمِ الأُنس ... وَإِخلالِهِ بَنِيَّةَ رِمْسِ

لَوْ تَراهُ عَلِمْتَ أَنَّ اللَيالِي ... جَعَلَتْ فيهِ مَأْتَماً بَعْدَ عُرْسِ

وَهُوَ يُنبِيكَ عَنْ عَجائِبِ قَوْمٍ ... لا يُشابُ البَيانُ فِيهِمْ بِلُبْسِ

فَإِذا ما رَأَيْتَ صُورَةَ أَنطاكِيَة ... ارتعت بَيْنَ رومٍ وَفُرْسِ

وَالمَنايا مَواثِلٌ وَأَنوشِرْوانَ ... يُزْجِي الصُفُوفَ تَحْتَ الدِرَفْسِ[١٠]

في اخضِرارٍ مِنَ اللِباسِ عَلى أَصْ ... فَرَ يَختالُ في صَبيغَة وَرْسِ[١١]

وَعِراكُ الرِجالِ بَيْنَ يَدَيْهِ ... في خُفُوتٍ منه وإِغماضِ جَرْسِ

مِنْ مُشيحٍ[١٢] يَهوِي بِعامِلِ رُمحٍ ... وَمَليحٍ مِنَ السِنانِ بِتُرْسِ

---

(٦) خافضون : منعمون •

(٧) حلل : الديور والأماكن ، البسابس : القفار ، ملس : الصحارى •

(٨) مساع : مكارم ، عنس : قبيلة من اليمن ، عبس : قبيلة من نجد •

(٩) الجرماز أحد قصور الإيوان ، رمس : قبر •

(١٠) الدرفس : العلم •

(١١) الورس : نبات أصفر يصبغ به •

(١٢) المشيح : المقبل إليك والمانع لما وراء ظهره ، عامل الرمح : صدره
المليح : المحاذر خوفا •

تَصِفُ الْعَيْنُ أنَّهُمْ جِدّ أحْيَـ   ـاءٍ لَهُمْ بَيْنَهُمْ إشَارَةُ خُرْسِ
يَعْتَلِي[١٣] فِيهِم ارْتِيَابِي حَتَّى   تَتَقَرَّاهُم يَدَايَ بِلَمْسِ
وَكَأنَّ الإيوانَ مِنْ عَجَبِ الصَّنْـ   ـعَةِ جَوبٌ[١٤] فِي جَنْبِ أرْعَنَ جِلْسِ
فَيَظُنُّ مِنَ الْكآبَةِ أنْ يَبْدُو   لِعَيْنَيْ مُصْبِحٍ أوْ مُمْسِي
مُزْعِجاً بِالْفِرَاقِ عَنْ أُنْسِ إلْفٍ   عَزَّ أوْ مُرْهِقاً بِتَطْلِيقِ عِرْسِ
عَكَسَتْ حَظَّهُ اللَّيَالِي وَبَاتَ الْمُشْـ   ـتَرِي فِيهِ وَهْوَ كَوْكَبُ نَحْسِ
فَهْوَ يُبْدِي تَجَلُّداً وعليه   كَلْكَلٌ مِنْ كَلاكِلِ الدَّهْرِ مُرْسِي
لَمْ يَعِبْهُ أنْ بُزَّ[١٥] مِنْ بسط الديبا   جِ واسْتُلَّ مِنْ سُتُورِ الدِّمَقْسِ
لَيْسَ يُدْرَى أصُنْعُ إنْسٍ لِجِنٍّ   سَكَنُوهُ أمْ صُنْعُ جِنٍّ لإنْسِ
عَمَرَتْ لِلسُّرُورِ دَهْراً وصَارَتْ   لِلتَّعَزِّي رِبَاعُهُمْ وَالتَّأسِّي
فَلَهَا أنْ أُعِينَهَا بِدُمُوعٍ   مُوقَفَاتٍ عَلَى الصَّبَابَةِ حُبْسِ
ذَاكَ عِنْدِي وَلَيْسَت الدَّارُ دَارِي   بِاقْتِرَابٍ مِنْهَا وَلا الْجِنْسُ جِنْسِي
غَيْرَ نُعْمَى لِأهْلِهَا عِنْدَ أهْلِي   غَرَسُوا مِنْ ذَكَائِهَا خَيْرَ غَرْسِ
وَأرَانِي مِنْ بَعْدُ أكْلَفُ بِالأشْرَا   فِ طُرًّا مِنْ كُلِّ سِنْخٍ وَأُسِّ[١٦]

---

(١٣) يعتلي : يعظم ، تتقراهم : تتبعهم ·
(١٤) الجوب : الترس ، الأرعن : الأحمق : الجلس : الغليظ الاحمق ·
(١٥) بز : سلب ، الدمقس : الحرير الأبيض ·
(١٦) السنخ : الأصل ، الأس : مبتدأ انسماء ·

التعليق

فى هذه القصيدة يطالبنا البحترى بوقفة طويلة على إيوان كسرى ، ويتحدث عنه حديثاً طويلا ، وقد سبق أن رأيت صورة أخرى فى المدح عند البحترى فى قصيدة سابقة ، ولكنه يعرض هنا لموقف آخر تعرضت له نفسه وهو نوع من الشعور بالأسى والحزن وحيث قد دفعه هذا الشعور إلى أن يهجر حياة الناس ليلتمس عزاء فى تلك الآثار المتبقية .

ونستطيع أن نقسم القصيدة إلى المحاور الآتية :

المحور الأول : شكوى نفسه من الناس وترفعه عن أن يرضى لها ذلا ، ويشكو البحترى قوة الأيام وظلم ابن عمه أى تبدل الآخرين عموماً وضياع أمانيه وإحساسه بأن الزمن يميل إلى اللئام ولا يدع للشرفاء إلا اليأس والألم ، ثم يبين البحترى عن ندمه لرحيله من الشام إلى العراق ويظهر حزنه للخسارة التى أصابته .

المحور الثانى : نجده فى رحلته التماساً لعزاء النفس بين تلك الآثار القديمة وتذكره لمجد الساسانيين ثم وصفه للنصر ، فيصفه بأنه عال شاهق يتفوق على أطلال العرب التى يطيل الشعراء الحديث عنها ويتفوق بمجد أصحابه .

والجرماز أحد قصور الإيوان أضحى لتهدمه كالقبر القديم وكأن به مأتماً بعد أن كان للسعادة والنعمة .

المحور الثالث : يصف أنطاكية ومعركتها الشهيرة بين الروم والفرس ويرسم صورة تكاد تمسها للقتال الدائر حتى يخيل إلينا أن المعركة أمام أعيننا .

المحور الرابع : عودة إلى وصف الإيوان فيجعله وهو فى استدارته وهو بجانبه بناء عظيم يشبه ترساً على جنب امرئ أحمق ، ويعطيه تجسيداً حياً حين يجعله حزيناً لفراق إلفه أو تطليق عروسه ومع ذلك فهو يتجلد للدهر ويصبر على الزمن .

المحور الخامس : وفاء ودمعة ود لتلك الأماكن وهذا الوفاء ينفصل عن فكرة التعصب للجنس فللفرس جميل لا ينسى إشارة إلى تأييدهم للعباسيين عند قيام دولتهم .

وموقفه الإنسانى العـام بأن طبعه الميـل إلى كل كريم شريف مهما يكن جنسه ونوعه .

فى القصيدة ذلك المدلول الذى لايخطىء الناظر لشعر البحترى والذى تحدثنا عنه فى قصيدة أخرى له وهى حرصه على التواؤم الموسيقى والإيقاعات الداخلية المتوازنة فى الأبيات ، وقد تأتى من تـكرار بعض الألفاظ أو الحروف المتقاربة مثل تكرار السين مثلاً أو الفاء مثل « ولا الجنس جنس ـــ غرسوا خير غرس » ، ومثل طفقتها الأيام تطفيف بخس ، وقد تـكون جمله الموسيقية معتمدة على تـكرار الألفاظ التى تتقارب فى المعنى أوتـكرار العبارات التى تشع بالرقة والعذوبة .

وحيد

لابن الرومى

تمهيد : « وحيد » تلك المغنية التى تلبست وجدان ابن الرومى « أبو الحسن على ابن العباس بن جريج » « ٢٢١ — ٢٨٣ » ذلك الشاعر العبقرى الذى يمثل الغائص فى بحور الافكار ليستخرج أجمل اللآلىء وأحلاها وهو يغربل بحره ويصفى موجه فى مصفاة ذهن يدأب على الاستقصاء ، فلا يترك المعنى إلا وقد استحوذ عليه من جميع أطرافه .

النص

يَا خَلِيلَيَّ تَيَّمَتْنِي وَحِيدُ ... فَفُؤَادِي بِهَا مُعَنًّى عَمِيدُ
غَادَةٌ زَانَهَا مِنَ الغُصْنِ قَدٌّ ... وَمِنَ الظَّبْيِ مُقْلَتَانِ وَجِيدُ
وَزَهَاهَا مِنْ فَرْعِهَا وَمِنَ الْخَدَّيْنِ ذَاكَ السَّوَادُ وَالتَّوْرِيدُ
أَوْقَدَ الْحُسْنُ نَارَهُ فِي وَحِيدٍ ... فَوْقَ خَدٍّ مَا شَانَهُ تَخْدِيدُ
ظَبْيَةٌ تَسْكُنُ الْقُلُوبَ وَتَرْعَاهَا ... وَقُمْرِيَّةٌ لَهَا تَغْرِيدُ
وَغَرِيرٌ بِحُسْنِهَا قَالَ : صِفْهَا ... قُلْتُ أَمْرَانِ : هَيِّنٌ وَشَدِيدُ
يَسْهُلُ الْقَوْلُ : أَنَّهَا أَحْسَنُ الأَشْيَاءِ طُرًّا وَيَصْعُبُ التَّحْدِيدُ
تَتَجَلَّى لِلنَّاظِرِينَ إِلَيْهَا ... فَشَقِيٌّ بِحُسْنِهَا وَسَعِيدُ
تَتَغَنَّى كَأَنَّهَا لا تُغَنِّي ... مِنْ سُكُونِ الأَوْصَالِ وَهِيَ تُجِيدُ
مَدَّ فِي شَأْوِ صَوْتِهَا نَفَسٌ كَافٍ ... كَأَنْفَاسِ عَاشِقِيهَا مَدِيدُ

فَتَرَاهُ يَمُوتُ طَوْرًا وَيَحْيَا مُسْتَلَذٌّ بَسِيطه والنَّشِيدُ
فِيهِ وَشْيٌ وَفِيهِ حَلْيٌ مِنَ النَّغَم مصوغٌ يَخْتَالُ فِيهِ الْقَصِيدُ
حُسْنُهَا فِي الْعُيُونِ حُسْنٌ جَدِيدٌ فلها فِي الْقُلوبِ حُبٌّ جَدِيد
لِي حَيْثُ انْصَرَفْتُ مِنْهَا رَفِيقٌ مِنْ هَوَاهَا وَحَيْثُ حَلَّتْ قَعِيدُ
عَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي وَقُدَّامِي وَخَلْفِي فَأَيْنَ عَنْهُ أَحِيـدُ
سَدَّ شَيْطَانُ حُبِّهَا كُلَّ فَجٍّ إِنَّ شَيْطَانَ حُبِّهَا لمريد
أَهِيَ شَيْءٌ لاَ تَسْأَمُ الْعَيْنُ مِنه ؟ أَمْ لَهَا كُلَّ سَاعَةٍ تَجْدِيدُ ؟
بَلْ هِيَ الْعَيْش لاَ يَزَالُ مَتَى اسْتَمْرض يُمْلِي غرائبًا ويُعيد
مَنْظَرٌ مَسْمَعٌ مَعَانٍ مِنَ اللَّهو عِنَاد لما يُحِبُّ عَنِيد
مَا تَزَالِينَ نَظْرَةً مِنْكِ مَوْتٌ لِي تُمِيتُ وَنَظْرَةٌ تَخْلِيد
نَتَلاَقَى فَلَحْظَةٌ مِنْكِ وَعْدٌ بِوِصَالٍ وَلَحْظَةٌ تَهْدِيدُ

التعليق

هذه مغنية يصفها بتلك الأوصاف العربية القديمة المعروفة فهي غادة قدها غصن ومقلتاها كمقلتي الظبي وجيدها أيضاً ولكنه يبحث في نواحي تلك الصورة التقليدية ليضيف إليها أثر جمالها في وجدانه فالحسن أوقد ناره فيها وهي ظبية تسكن القلب فاجتمع في قلبه ناران نارها ونار حبه لها .

إنها الجمال نفسه والجمال من الصعب أن يحدد مكان بيته هذا الذى جمع كل أفكار الفلاسفة الجماليين ابتداء من «هيجل» إلى «كانت» حيث يقول ابن الرومي :

يسهل القول أنها أحسن الأشيا ء طراً ويصعب التحـديد

وهو يصف صوتها وكأنه في رأينا قد سبق مدارس الرمزيين المعاصرين حيث تتبادل معطيات الحواس فالصوت فيه وشى ، والصوت فى حلى من النغم وهى تغنى كأنها لاتغنى كما يقول ابن الرومى معللا أو مفسراً من «سكون الاوصال» كأنه أدرك أيضا المقولة الجمالية المحدثة التى ترى بأن الجمال سكون وليس حركة ثم يصف صوتها فى انبساطة وامتداده وفى جميع أحواله بأنه نغم مستلذ كما يقول الأستاذ العقاد متحدثاً عنه «فكأنه قد بلغ فى تحسس الصوت مرتبة الموسيقيين الذين يتمثلون الأنغام ألوانا وزخارف وأوشية، تكاد تنطبع فى صفحة الخيال أو تكاد تدركها العين لشدة بروزها فى قرارة الوجدان» .

وحديث ابن الرومى عن حبه «لوحيد» صورة تتقزم أمامها كل صورة لعاطفة الحب ، فقد يمل الانسان ما ألفه ويفقد كل شىء جدته إلا محبوبته يتجدد حسنها دائماً فيتجدد حبه دائماً .

حسنها فى العيون حسن جديد　　　فلها فى القلوب حب جديد

ويطارده حبها عن يمينه وعن شماله وقدامه وخلفه وكما يقول «سد سلطان حبها كل فج» ويحار ابن الرومى فى تلك المغنية التى كلما رآها كلما أوقد الحب نيرانه فى وجدانه ويتساءل لماذا لا يمل كما يمل كل محب حبيبه

أهى شئ لا تسأم العين منه　　　أم لها كل ساعة تجديد

وتظل «وحيد» أمله ويأسه وجوده ومماته

ما تزالين نظرة منك موطن　　　لى مميت ونظرة تخليد

يقول ابن خلكان عنه : «وهو صاحب النظم العجيب والتوليد الغريب، يغوص عن المعانى النادرة ، فيخرجها من مكامنها ويبرزها فى أحسن صورة ، ولا يترك المعنى حتى يستوفيه إلى آخره ، ولا يبقى فيه بقية» .

أبو تمام يرثى محمد بن حميد الطوسى

تمهيد : «أبو تمام» حبيب بن أوس الطائى .. ولد بالقرب من دمشق فى الربع الأخير من القرن الثانى للهجرة ، ونشأ فى هذه الحاضرة العلمية يرتاد حلقات العلم ، وندوات الأدب ، ثم تراه يهبط إلى مصر ، وينزل فى الفسطاط حيث مسجد عمرو بن العاص ، وهو آنذاك ملتقى العلماء ، ومنتدى الشعراء ، فيغترف من مناهل العلم ويساجل شعراء مصر ، ويفيد من ثقافاتها ثم يعود إلى دمشق ، ويتحول إلى بغداد فى عهد المعتصم الخليفة العباسى الكبير .

وفى بلاط هذا العاهل العظيم تقبل عليه الدنيا ، ويحالفه المجد ، فيصبح المقدم عنده يتغنى بأعماله ، ويتحدث بمآثر خلافته : مثل فتح عمورية ، والقضاء على ثورة « بابك الخرمى » وبعد المعتصم يأتى عهد ولده الواثق فيخص شاعر والده بمزيد من التقدير ، ثم أخذ أبو تمام ينقب فى البلاد فيتهاداه وجهاء السياسة فى العراق ، وفى خراسان .

وفى نهاية الثلث الأول من القرن الثالث الهجرى انتقلت قيثارة الشعر من يد أبى تمام لتتناولها أجيال من بعده لاتزال حتى الآن تعزف على هذه القيثارة بما تروى من شعره .

وترك لنا أبو تمام مختارات جمعها بنفسه فى كتاب سماه « ديوان الحماسة » ويعد من أعظم مراجع الشعر فى العصر الجاهلى وصدر الإسلام وبنى أمية .

« محمد بن حميد الطوسى » ، قائد عربى ظهرت كفاءته القتالية فى المعارك التى خاضت فيها الجيوش الإسلامية الحرب ضد « بابك الخرمى » الذى ادعى الألوهية وأفسد عقول الناس ، وقد شد أزره ملك أرمينية وامبراطور بيزنطة فقذف الرعب فى نفوس المسلمين النازلين بين أذربيجان وإيران فتصدى له المعتصم وقائده وأحرزا انتصارات حاسمة ضد الخرمية بصفة عامة ، وبابك بصفة خاصة . وفى إحدى هذه المعارك سقط القائد شهيداً فى سبيل الدفاع عن العرب والمسلمين .

فلا غرو إذا حزن عليه المسلمون ، وحزن المعتصم ، وقد عبر أبو تمام عن هذا الحزن العميق فقال :

النص

كَذَا فَلْيَجِلَّ الخَطْبُ وَلْيَفدَحِ الأَمْرُ [1]

فليسَ لِعَينٍ لم يَفِضْ ماؤُها عُذر

تُوفِّيَتَ الأمالُ بَعْـدَ محمدٍ وأصبحَ فى شُغْلٍ عَنْ السَّفَرِ السَّفْرُ [2]

وما كانَ إلا مالَ من قَـلَّ مالُه وذُخرا لمن أمْسى وَلَيس له ذخْرُ

وماَ كانَ يَدْرِي مُجْتَدِى [3] جود كَفِّهِ

إِذَا ماَ اسْتَهَلَّت أنَه خُلِقَ العُسْرُ

أَلاَ فِى سَبِيلَ المَجْدِ مَنْ عُطِّلَتْ لَه فُجاجُ [4] سَبيلِ اللهِ وانْثَغَر الثَّغْرُ [5]

فتىً كُلمَا فاضت عيونُ قَبيلةٍ

دَماً ضَحِكت عَنهُ الأحاديثُ والذِّكْرُ [6]

فَتًى دهرُه شَطْرَان فِيما يَنوبُه فَفى بأسِهِ شَطْرٌ وفى جودِهِ شَطْرٌ [7]

فَتًى ماتَ بينَ الطَّعْنِ والضربِ مِيتَةً تقومُ مَقامَ النصرِ إذ فاتَه النَّصْرُ

---

(١) بفدح الأمر : يصعب ·

(٢) السفر : المسافرون ·

(٣) المجتدى : سائل العطاء ، استهلت : امتدت بالعطاء ·

(٤) الفجاج : جمع فج وهو الطريق الواسع ·

(٥) انثغر الثغر : فتحت الحدود ·

(٦) فاضت ··· دما : يريد هزمت ، ضحكت الاحاديث : ذكرته بالفخر لأنه انتصر ·

(٧) ينوبه : يلم به ، بأسه : شجاعته وقوته ·

وما ماتَ حتّى ماتَ مَضرِبُ سيفِه
من الضَّربِ واعتَلّتْ عليه القنا السُّمر (٨)

وقد كان فَوْتُ الموتِ سهلاً فردَّه
إليه الحِفاظُ المرُّ والخلقُ الوَعْرِ (٩)

ونفسٌ تخافُ العارَ حتّى كأنّما
هو الكُفْرُ يومَ الرَّوع (١٠) أو دونَه الكُفْر

فأثبت فى مُستَنْقَعِ المَوْتِ رِجلَه
وقالَ لها من تحتِ أخْمَصِك (١١) الحشر

غداً غُدْوةً (١٢) والحمد نَسْجَ ردائِه
فلم يَنصرِفْ إلا وأكفانُه الأجر

تَرَدَّى ثيابَ الموتِ حُمراً فما دجا
لها اللّيلُ إلّا وهى من سُنْدسٍ خُضْر (١٣)

كأنّ بَنى نَبهانَ يومَ وفاتِه
نُجومُ سماءٍ خرّ من بينِها البدْرِ (١٤)

يُعزَّونَ عَن ثاوٍ تُعزَّى بِهِ العُلا
ويَبكى عَلَيْه البأسُ والجودُ والشِّعْر (١٥)

---

(٨) اعتلت : تثاقلت ، القنا السمر : الرماح .

(٩) الخلق الوعر : الشديد الأنفة .

(١٠) الروع : الحرب الشديدة .

(١١) أخمص القدم : أسفلها الذى لا يصيب الأرض .

(١٢) غدا غدوة : خرج أول النهار .

(١٣) تردى : لبس ، دجا ... الليـل ، أظلم ، سندس خضر : حرير نسيج .

(١٤) بنى نبهان : قوم محمد بن حميد .

(١٥) ثاو : مقيم ، البأس : القوة .

وأنى لهم[١٦] صبرٌ عليه وقد مَضَى إلى الموتِ حتى استُشهِدا هو والصَّبْرُ

فتى كان عذبَ الرُّوحِ لا من غَضَاضَةٍ[١٧]

ولكنَّ كِبرًا أن يُقال به كِبْرُ

فتى سلبته الخيلُ وهو حِمًى لها وبزَّته[١٨] نارُ الحربِ وهو لها جَمْرُ

وقد كانت البيضُ المآثيرُ في الوغى بواترَ، فهي الآنَ من بعده بُتْرُ[١٩]

أمِن بعد طيِّ الحادثاتِ محمدًا يكونُ لأثوابِ النَّدَى[٢٠] أبدًا نَشْرُ

إذا شَجراتُ العُرفِ[٢١] جُذَّت أُصُولُها

ففي أيِّ فرعٍ يُوجَد الورَق النضْر

لئن أُبغِضَ الدَّهرُ الخئونُ لفَقْدِه لعَهدِي به مِمَّنْ يُحَبُّ له الدَّهْرُ.

سَقَى الغَيْث أرضًا وارتِ الأرضُ شَخْصَه

وإن لم يَكُنْ فِيهِ سَحابٌ ولا قَطْرُ[٢٢]

وَكَيْفَ احْتِمالِي لِلغُيوثِ صَنيعَةً بِإسْقائِها قَبْرًا، وَفي لَحْدِهِ الْبَحْرُ[٢٣]

---

(١٦) أنى لهم صبر : كيف يصبرون ومن أين يأتيهم الصبر .

(١٧) من غضاضة : من ذلة .

(١٨) بزته : سلبته .

(١٩) المآثير : جمع مأثور ، وهو السيف المأثور القديم المتوارث . الوغى : الحرب ، بواتر : قواطع ، بتر جمع أبتر : وهو المقطوع .

(٢٠) الندى : الجود والكرم .

(٢١) العرف : المعروف .

(٢٢) الغيث : المطر ، وارت : أخفت .

(٢٣) صنيعة : جميلا ومعروفا ، لحده : قبره .

مَضَى طَاهِرَ الأثوابِ لم تَبْقَ رَوْضَةٌ غَدَاةَ ثوى إلَّا اشتَهَتْ أنها قَبْرُ (٢٤)
ثَوَى في الثَّرَى مَنْ كانَ يَحْيَا بهِ الثَّرَى وَيَغْمُرُ صَرْفَ الدَّهْرِ نائِلُهُ الغَمْرُ (٢٥)
عَلَيْكَ سَلامُ اللهِ وَقْفًا فإنَّني رَأَيْتُ الكَرِيمَ الحُرَّ لَيْسَ لهُ عُمْرُ (٢٦)

التعليق

— يمثل أبو تمام في هذه القصيدة حزن أمة العرب على قائد من قوادها، ومشاعره ومشاعر قبيلة نبهان على بطلها محمد بن حميد ، إنه يصور فداحة الخطب وجلال الخطر ، وبطولات المعارك التي خاضها ، ومصرعه المشرف في المعركة التي خلدت ذكراه . لقد مات ميتة شريفة مشرفة « تقوم مقام النصر إن فاته النصر » ، ويعدد مكارمه ومآثره كما يراها الشاعر ، وكما تراها القبيلة . وكما يراها الناس جميعاً . ثم ينهي قصيده برجاء الرحمة له.

— وفي مطالع القصيدة تهويل يليق بعظمة القائد المفقود ، أمر فادح ، وذهول ينسى الناس آمالهم ومهام أمورهم .

يفاجئنا بذلك مفاجأة الخطب على النفس فتستشعر فداحة الفقد لأعز من تحب وتعقد به الآمل .

لقد كان « ابن حميد » قمة في الجود ؛ فهو للفقير مال وغنى ، ولذى الحاجة ذخيرة وجاه ، ولطالبي معروفه فيض غامر ، وعطاء جزيل .

— وفي مفتتح القصيدة وختامها يلح أبو تمام على كرم القائد ، وكان المتوقع أن يكون أكثر إلحاحاً على بطولاته ، وهذا ماتتوقع من شاعر وفَّى الشهيد القتيل حقه من جلال البطولة أن يحدثنا كثيراً عن كرمه ومعروفه لأن هذه الصفة الأخيرة تمثل مركز الاهتمام ومحور الأمل لدى شاعر متكسب ، إنها بؤرة الاهتمام التي تتجمع

(٢٤) طاهر الأثواب : كناية عن العفاف ، اشتهت : تمنت .
(٢٥) الثرى : التراب ، صرف الدهر : شدائده ، نائله الغمر : عطاؤه الكثير .
(٢٦) ليس له عمر : يقصد أن عمره قصير .

فيها الانفعالات والأحاسيس، فهي المنطلق والمنتهى للعاطفة التي تربط الشاعر بالفقيد الشجاع الكريم .

— ويلجأ الشاعر في القصيدة إلى التكرار، والتكرار نوع من التقوية بالصوت والكلمة، وأنه ليتلون عند أبي تمام ولا يسير على وتيرة واحدة، إنه يمثل الثناء والإشادة بالقائد الفقيد كما تلحظ في قوله :

فتى كلما فاضت عيـــون قبيـــلة دماً ضحكت عنه الأحاديث والذكر

فتى دهـــره شطران فيما ينـــوبه ففي بأسه شطر وفي جوده شـــطر

فتى مات بين الطعن والضرب ميتة تقـــوم مقام النصر إن فاته النصر

إنه يكرر اللفظ ، ويكرر المعنى ، ويكرر في أول البيت وفي منتهاه وفي تكراره معاني الاعتزاز والاعتداد بهذا القائد .

على حين نجده يستغل التكرار ولكنه يخرج به إلى تمثيل الحسرة، وتأكيد الأسى ومن نماذج ذلك قوله :

وأنى لهم صبر عليه . . . . استشهد هو والصبر .

فتى كان عذب الروح . . .

فتى سلبته الخيل . . .

إن أبا تمام يعرض معاني مكررة سبقه إليها عديد من الشعراء غير أن لتكراره مذاقاً جديداً إذ يخرجه إخراجاً طريفاً يستغل فيه دقة فكره ، وبدائع ملكاته . .

— ونكاد نقرر أن كل بيت من أبيات القصيدة وحدة من وحدات التنميق ، والزخرف ، أنه ليس زخرفاً لفظياً فحسب . بل هو زخرف لفظي ومعنوي في آن واحد ، إنه يروعنا بظاهره كما يعجبنا بباطنه .

فالتكرار بإعادة الفعل أو المصدر أو الكلمة أمر شائع في القصيدة كلها :

« السفر السفر ، مال من قل ماله ، ذخر وذخر ، شطران شطر وشطر ، والنصر والنصر . . . وهكـــذا » ولكننا لانحرم من تكملة للمعنى وإثراء للفكرة إثراء يصل بها إلى المبالغة تارة كما في قوله :

فتى دهـــره شطران فيما ينوبه ففي بأسه شطر وفي جوده شطر

وإلى الطرافة تارة أخرى كما فى قوله :

« يعزون عن ثاو تعزى به العلا . . . »

« . . . ولكن كبرا أن يقال به كبر .

— وفى القصيدة يكثر الجناس وشبه الجناس . . . وبهذا عرف أبو تمام ومن قبله أستاذه « مسلم بن الوليد » ولكن هناك فرقاً واضحاً بين جناس ابى مسلم وجناس أبى تمام أن هذا الأخير لايسوق الجناس وحده كما يصنع أستاذه ، بل يعرضه فى ثوب مزركش من الخيالات والتصاوير كما يظهر فى قوله :

ثوى فى الثرى من كان يحيا به الثرى ويغمر صرف الدهر نائله الغمر

لانجد الجناس الناقص وحده على طريقة أبى مسلم ، بل تجد بجواره أثواباً مزخرفة من ألوان الخيال .

إن التكرار وشبه الجناس والمشاكلة والطباق أكثر شيوعاً فى هذه القصيدة فلا يكاد يخلو منها بيت إلا لتذكر فى سابقه أو لاحقه . وكل هذه الزخارف يمر بعضها فى أوعية بعض ، فإذا هى تتجلى فى هيئات وشيات جديدة .

وإذا تأملت تصوير أبى تمام تجده مصبوغاً بألوان براقة تجذب النظر وتثير الفكر « فابن حميد » :

تردى ثياب الموت حمراً فما دجا لها الليل إلا وهى من سندس خضر

وراح أبو تمام يخلع هذه الألوان الزاهية على شخوص حية ذات صوت وحركة ، إنه التشخيص والتجسيم فى شعرنا العربى ، وتلك نواة هذه الظاهرة التى شاعت فى شعرنا المعاصر وظننا أنها من إبداع الغربيين .

فأبو تمام يتصور .. الآمال متوفاة ، خلق العسر ، وضحكت الأحاديث والذكر .

ومات مضرب السيف ، والعلا تعزى بموته ، ويبكى عليه البأس والجود والشعر »

ولهذا نقرر أن أبا تمام شاعر الألوان والظلال ، وشاعر التشخيص والتجسيم والزخارف المونقة ، ولكنها ليست الزخارف الشكلية بل هى أيضاً زخارف الفكر والمنطق .

وبذلك يعد أبو تمام زعيم المجددين فى عصره ، وسابق عصرنا بما أبدع من لمحات فنية رائعة . (*)

(*) دكتور سعد شلبى

الحسن بن هانىء «أبو نواس»

من شعره

تمهيد : ولد أبو نواس حوالى سنة ١٣٦ ﻫ وتوفى حوالى سنة ١٩٦ ﻫ .

« أعمق شعراء زمانه حساً وأبرعهم فناً وأخصبهم خيالا وأوفرهم حظاً من الظرف والفكاهة . . . يمثل « الثورة الأولى فى الشعر العربى التى غيرت طريقه ، التى كان يسلكها منذ امرىء القيس . . . ويمثل « روح عصره أدق تمثيل . . . بكل نقائصه ومزاياه »[1].

وإن كثيراً من الدارسين للأدب والمتذوقين له يستقبلون شعر أبى نواس بشىء من الاستهانة أو الاستخفاف ، وقد لا يوجه لهؤلاء من اللوم قدر ما يوجه إلى أبى نواس نفسه فهو المسئول عن هذا الانحراف الذى يشيع فى خمرياته ومجونياته ، ولكن له بجوار هذه الانحرافات نزعات صافية طاهرة تحملنا على التريث فى الحكم على هذا الشاعر .

لابد أن يكون فى الحسبان أن الحياة فى عصره كانت تدافعاً على المتاع واللذة فى نهم وإسراف ، وأن الخلفاء أنفسهم لم يتورعوا عن الأخذ منها بنصيب .

وينبغى أن يكون فى الحسبان أيضاً أنه نشأ يتيما لم يجد الأب الذى يأويه ، ولم تصدق أمه فى الحنان والإشفاق عليه ، ولكنها انصرفت تلتمس السكن فى ظل رجل يرعاها ويعادى ولدها سراً وعلانية ، فانقطعت صلته بالبيت الذى ولده فيه ، وذهب يغشى من المنتديات الجيل منها الذى يشيع فيه العلم والأدب واللغة وعلوم الشريعة وغيره الجميل الذى يصخب بالأحداث والمراهقين الذين أعجبهم ظرفه وسحرهم جماله .

تنقل أبو نواس بين مجالس الشعر والأدب واللهــــو فى الكوفة . والبصرة ، وتوثقت علاقته بخلف الأحمر « راوية الشعر » فسمع وحفظ الكثير منه ، ورحل إلى البادية فنزل فى بنى أسد فسمع وشاهد .

---

(١) الأستاذ عزيز أباظة فى مقدمة « ديوان أبى نواس » .

لقد أحب أبو نواس فتغزل . وانتجع كرام زمانه فمدح ورثى ، وغشى مجالس اللهو فعبث ولها ، وشرب ووصف وهجا .

ويرجع أبو نواس إلى نسب فارسى فكان لذلك من الشعوبيين الغلاة .

وأخيراً صحا ضميره فزهد وخاف واتقى . . .

وسنقدم إليك باقات من أشعار أبى نواس ونترك لك الحكم عليها واستيحاء ماتدل عليه من صفات الخلق وسمات الأدب ، ونزعات الروح :

١ — هام بأربعة هى :

أَربعةٌ يَحْيَا بها قلبٌ وَروحٌ وَبَدَنْ
الْمَاءِ وَالْبُسْتَانُ وَالْ خَمْرَةُ وَالْوَجْهُ الحسن

وقال :

سَأَلتُ أَخى أَبا عيسَى وَجبريلُ له عقــلُ
فقلتُ : الخمرُ تعجبُنى ! فقالَ : كثيرُها قتْل
فقلتُ له : فقــدِّر لى فقال : وَقوْلُه فَصْل :
وَجَدْتُ طَبائِــعَ الإنسا نِ أَرْبَعَةً هِيَ الأَصل[1]
فَأَرْبَعةٌ لأربعةٍ لــكلِّ طبيعةٍ رِطْل

٢ — فى الجنة خمر :

هذه الممنوعُ منها وأنا المحتَجُّ عنْها
مالها تحرُمُ فى الدُّ نيا وفى الجنَّةِ منها ؟ !

(١) يشير الى العناصر الأربعة : الماء ، والنار ، والتراب ، والهواء .

٣ — سخرية من البكاء على الأطلال واستتابة بحد الخمر :

بكيتُ وما أبكي عَلَى دِمَنٍ[1] قفر … وما من عِشق فأبكي من الهَجْرِ
ولـكن حديث جاءنا عن نبيِّنا … فذاك الذي أجرَى دُموعي على النَّحْرِ
بِتحْريم شُرْبِ الخمر وَالنَّهي جاءنا … فلمَّا نَهى عَنْهَا بكَيْتُ عَلَى الخمر
فَأشرَبُها صِرْفًا وَأعلمُ أنني … أعزَّرُ فيها بالثمانين فى ظَهْرِى

٤ — ولا يبكى على رسوم الديار ولكنه يبكى لتحريم العقار :

لقد جُنَّ من يَبْكى على رَسْم مَنْزِل … وَيندُب أطْلالاً عفَوْن بجرْوَل[2]
فإن قيل ما يُبكيكَ : قالَ : حمامةٌ … تنوحُ على فَرْخٍ بأصْوَاتِ مِعوَل
وَلـكنني أبْكي على الرَّاحِ ، إنها … حَرَامٌ عَلينا فى الـكتابِ المُنَزَّل
سأشرَبها صِرْفًا ، وَإن هِيَ حُرِّمت … فقد طالما واقعتُ غيرَ محلَّلِ

٥ — يستعيذ بالخمر من رمضان :

استعِذْ من رَمضانٍ … بسُلافاتِ الدِّنانِ
واطْوِ شوَّالاً على القَصْـ … ـفِ ، وَتغريدِ القِيانِ[3]
وَلْيـكُن فى كلِّ يَوْمٍ … لَكَ فيه سَكْرَتانِ
مِنْ شَوَّالٌ علينا … وَحَقيقٌ بامْتِنانِ

---

(١) الدمن : آثار الديار .
(٢) جرول : الأرض ذات الحجارة .
(٣) القيان : المغنيات .

جاء بالقَصْفِ وَبالْعَزْ ف ، وَتَخْلِيع الْعنَان
أَوْفَقُ الأشهر لى أَنْ مدُها مِنْ رَمضان

٦ — الخمر خير من : الصلاة — والصيام — والزكاة — والحج — والجهاد :

قُلْ للعَذول بحانةِ الخمّار والشُرْب عند فَصاحةِ الأوْتار
إنى قصدتُ إلى فقيهٍ عالمٍ مُتنسّكٍ(١) حبْرٍ من الأحبار
مُتعمّقٍ فى دينهِ متفقّهٍ متبصّرٍ فى العِلْم والأخبار
قلتُ النبيذُ تُحلّه : فأجابَ لا إلا عُقارا(٢) يرتَمِى بِشَرار
قلتُ :الصّلاةُ فقال:فرض واجبٌ صلِّ الصّلاةَ وبِتْ حليفَ عُقار
أجمعْ عليك صلاةَ حَوْلٍ كاملٍ من فرضِ ليْلٍ فاقضِه بنهار
قلتُ :الصيامُ ؟ فقال لى : لا تَنْوِه واشْدُدْ عرى الإفطارِ بالإنطارِ
قلتُ : الزّكاةُ ؟ فقالَ لى شىءٌ يعدُّ لآلةِ الشُّطار
قلتُ : المناسِكُ إن حَججْتَ ؟ فقال لى
هذا الفُضول وغايةُ الإدبارِ
لا تأتينَّ بلادَ مكّة مُحرِمًا ولو انَّ مَكّةَ عِنْدَ بابِ الدّار
قلت :الطُّغاة ؟ فقالَ لى: لا تغزُوهم ولو أنّهم قرُبوا من الأنبار

---

(١) منتسك : متعبد ، حبر : عالم كبير .

(٢) العقار : الخمر .

٧ — وشرب حتى حسب الديك حماراً :

نَشْربُ الليلَ إلى الصُّبْـ ـحِ صِغارًا وكِبارا

وتُغنِّى ما اشْتَهيناهُ من الشِّعرِ جِهارا

اسْقِنى حتى تَرَانى أَحْسَبُ الدِّيكَ حِمارا

٨ — فى عذاب الحب وتباريح الهوى قال :

عَجباً لى كَيْفَ أَبقَى ولقد أثْخِنْت(١) عِشْقا

لم يُقاسِ النَّاسُ داء كالْهوى يَبْلَى ويَبْقَى

أىَّ شَىْءٍ بعد أنَّ الدَّمْـ ـعَ فيه لَيْسَ يَرْقَا(٢)

ليتَ شِعرى هكذا كا نَ أخِى عُروة(٣) يَلْقَى

وَيْكَ إن الْحُبَّ لم يَمْـ ـلِكْ سوى رِقِّ رِقّا

لِى مَوْلىً أَرتَجى منْـ ـهُ عَلَى رَغْمِك عتقاَ

قمرٌ بينَ نجومٍ ناصبٌ فى الصَّدْرِحُقّا(٤)

٩ — أحب وأخلص فى حبه وحاول إخفاءه فلم يستطع فقال : لا بأس من الحب :

دُموعى مَزَجت كاسِى ومَا أظهرتُ وَسْوَاسى

---

(١) اثخنت : أوهنت وغلبت .

(٢) يرقأ : يجف وينتهى .

(٣) عروة : عروة بن حزام ، قتله الحب .

(٤) حقا : يقصد النهد .

ولكنْ نطقَتْ عيْني   فنمَّت عن هوَى القاسى
وقالُوا فىَّ بالظَّن   فنكَّستُ لهم رأسى
ومَنْ يسْلَمُ يا حبِّ (م) من ألسِنةِ النَّاسِ
وَهَبْنى بحتُ بالحبِّ   فهلْ في الحُبِّ من باسِ

١٠ — الدنيا عنده : حب وشرب وطرب :

إنما همّتي غزَا   لٌ وصَهْباء كالذَّهبْ
إنما العيشُ يا أخِي   حب خشْف[1] مِنَ العرب
فإذا ما جَمعْتَه   فهو الدِّينُ والحسَب
ثم إنْ كانَ مطرِبًا   فهو العيش والأدَبْ
كلُّ من قَالَ غيرَ ذا   فاصْفعُوه فقدْ كَذَب

١١ — هذه محبوبته . . وهذا هو الحب كما يراه . . إنه زورق الهلاك :

أيا مَنْ أخْلَفَ الوَعْدَا   وَقد حالَ عن العَهْدِ
وَمن أفْرَطَ فى الهجْرا   نِ ، وَالإعْراض والصَّدِّ
وَيا مَنْ لا أُسَمِّيهِ   ولا أسْرَارَه أُبْدِى
ويا أَطْيَبَ مِنْ مِسْكٍ   وبا أليَنَ من زُبْدِ
ويا مَن قَلبُهُ أقْسَى   لنا مِنْ حَجَرٍ صَلْدِ

---

(١) الخشف : ولد الغزال .

ومَنْ لوْ كانَ في الطِّيبِ ... لكانَ الْعَنْبَرَ الْهِنْدِي
ومَنْ لو كانَ في الرَّيْحا ... نِ ما كانَ سِوى الْوَرْدِ
تَرَانِي دَائِمًا ما عِشْـ ... ـتُ في زَوْرَقِكَ الْمُرْدِي (١)

١٢ — وفي يوم الحساب يرى أن الله أجل من أن يحاسبه :

ما أنا مِنْ مَوْقِفِ الْحِسَابِ إذا ... نُودِي بالأنْبيَاءِ وَالرُّسُلِ
ذَلِكَ يَوْمٌ يَجِلُّ عَنْ خَطَرِي ... فَمَا لِمِثْلِي هُنَاكَ مِنْ أَمَلِ
هُنْتُ عَلَى الْخَالِقِ الْجَلِيلِ فَمَا ... يَنْظُرُ فِي قِصَّتِي وَلا عَمَلِي

١٣ — وهذا رأيه في الخطايا والذنوب والحساب :

تَكَثَّرْ ما اسْتَطَعْتَ مِنَ الْخَطَايَا ... فَإِنَّكَ قَاصِدٌ رَبًّا غَفُورا
سَيُفْضِي ذَاكَ مِنْكَ إِلَى نَعِيمٍ ... وَتَلْقَى مَاجِدًا صَمَدًا شَكُورا
تَعَضُّ نَدَامَةً كَفَّيْكَ مِمَّا ... تَرَكْتَ مَخَافَةَ النَّارِ الشُّرُورا

١٤ — ثم يرجع إلى الله فيرى أن الله المدبر ، ويرجو صفحه وغفرانه :

يا نُوَاسِيُّ تَوَقَّرْ ... وَتَجَمَّلْ وَتَصَبَّرْ
سَاءَكَ الدَّهْرُ بِشَيْءٍ ... وبِمَا سَرَّكَ أَكْثَرْ
يا كَبِيرَ الذَّنْبِ عَفْوُ اللّـ ... ـهِ مِنْ ذَنْبِكَ أَكْبَرْ
أَكْبَرُ الأَشْيَاءِ عَنْ أَصْـ ... ـغَرِ عَفْوِ اللهِ أَصْغَرْ
لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلَّا ... مَا قَضَى اللهُ وَقَدَّرْ
لَيْسَ لِلْمَخْلُوقِ تَدْبِيـ ... ـرٌ بَلِ اللهُ الْمُدَبِّرْ

---

(١) المردى : سفينتك .

١٥ — وأخيراً يرى عدالة الله ، ويستمع لندائه ، ويستجلى نعماءه فى الكون ، ثم يقول بعد أن حج بيت الله .

إلهنا ما أعدلك مليك كل من ملك

لبيك قد لبيت لك

لبيك إن الحمد لك والملك لا شريك لك

ما خاب عبد سألك أنت له حيث سلك

لولاك يا رب هلك

لبيك إن الحمد لك والملك لا شريك لك

كل نبى وملك وكل من أهل لك

وكل عبد سألك سبح أو لبى فلك

لبيك إن الحمد لك والملك لا شريك لك

والليل لما أن حلك والسابحات فى الفلك

على مجارى المنسلك

لبيك إن الحمد لك والملك لا شريك لك

اعمل وبادر أجلك واختم بخير عملك

لبيك إن الحمد لك والملك لا شريك لك (*)

(*) دكتور سعد شلبى

فهرس

رقم الايداع بدار الكتب ١٦٦٧ لسنة ١٩٧٥